الصوفيون فقط على منهج السلف الصالح

لا (سلافيون) غيرهم

مع رسالة مشروعية إقامة البنيان على أضرحة الأولياء وزيارتها والتبرك بها

د. محمد محمد الشحومي

الفيتوري الإدريسي الحسني

المرشد العام للرابطة العالمية للشرفاء الأدارسة

رئيس هيئة الإرشاد والمرجعية العلمية للإتحاد العالمي للتصوف



بطاقة فهرسة



مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **الصوفيون منهج السلف الصالح**

المؤلف : د. محمد محمد الشحومي

رقم الإيداع :

الطبعة الأولى 2018




بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

الحمد لله الذي حفظ عباده من الغرور والتكلف، وصان فكرهم وألسنتهم من اللغو والتعسف، وأشهد أن لا إله إلا الله خص بالحقائق كل صادق منصف، وأغلق على الجفاة طريق المعرفة والتصوف، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله إمام الزهد والتعفف، اختص صفوته بالتزكية، تربية على منهج الحق بعد أن بيّن وعلّموا عرّف،اللهم صل وسلم على السيد الكامل من خص بالكمال وحسن التصرف، وعلى آله الأطهار منابع الحقيقة، وموارد الطريقة، ورضي الله عن أصحابه أعلام الرشاد، وأئمة السداد. أما بعد:

فيا عباد الله أوصيكم ونفسي الخاطئة بتقوى الله وأحضكم على التمسك بالأئمة الفضول، ورّاث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتلاميذ أهل بيته العدول، خاصة سلفنا الصالح من أئمة قرون الخيرية وعصر الصحابة والتابعين، من جمع الله لهم بين علمي الشريعة والحقيقة، فكانوا حرز الوقاية، من الغي والغواية التي نفثها الشيطان، وتنفست بها الأنسام، فأحيوا القلوب من مواتها، وأنقذوا النفوس من عثراتها، وضيقوا بالصدق والتقوى مناسم الشيطان، فأجفلت الشرور، وأحكمت الأمور فأقبل الصادقون على الله بالسريرة الصادقة والحكمة الناطقة، وأشرقت أسرار الشريعة على الجبين، وظهر نور القرآن المبين على ألسنة الموحدين، بحلل الإيمان، وأسرار القرآن، فازدهى المجتمع بالترابط والتوافق، إمامهم الصادق الأمين صلى الله عليه وآله إتباعا وحبا، وتعشقا وقربا، ترسموا الشريعة في كل مواقفها، إسلام وإيمان وإحسان، دعوة صدق من صادق، ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾. [البقرة: 129].

أنت أزكى الأنام في كل خير للمزكين منك جاء الزكاء

كان صلى الله عليه وآله وسلم يعلمنا الكتاب كما أنزل، ثم يعلمنا الحكمة وهي استنباط الأحكام من الذكر الحكيم لنحكم بها على كل شيء ونتحاكم إليها في كل أمر، ثم يزكينا وهي التربية على الالتزام بما عرفنا من الحق ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. ففي التزكية عز وحكمة لأن مريدها أفنى السِّوى، وانطوى في حامل اللواء صلى الله عليه وآله وسلم، فخُلعت عليه حلته، وظهرت على أسارير وجهه بهجته، ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة:119]، فلم يعرفوا سوى الله، ولم يتحققوا إلا بالله فهم عباد الله وخاصته، أصبحوا أرضا يلقى عليها كل قبيح، ولا يبرز منها إلا كل مليح، دخلوا في كل خُلق سنِّي، وخرجوا من كل خلق دني، همهم الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق، لا يكدرهم شيء، ويصفو بهم كل شيء، صفوا من الكدر، وامتلؤوا من الفكر، وانقطعوا إلى الله من البشر، واستوى عندهم الذهب والمدر، ضبطوا القِوَى، فكبحوا الهوى، أولئك الصوفية الأخيار إمامهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ووليهم علي كرم الله وجهه، وسلفهم الحسن البصري، وأويس القرني الذي قال الرسول ﷺ في حقه فيما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (**إن خير التابعين رجل يقال له أوس وله والده وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم**).

فالحمد لله الذي نور الذاكرين بذكره، وأنطق ألسنتهم بشكره، وسخر جوارحهم لطاعته، فهم في رياض الأنس يرتعون، وإلى أوكار المحبة يأوون، ذكرهم الله فذكروه، وأحبهم فأحبوه، ورضي عنهم فرضوا عنه، رأس مالهم الافتقار، ونظام أمرهم الاضطرار، علّمهم دواء الذنوب، وعرّفهم طب القلوب، فأضحوا مصابيح أنوار حجته،

وباتوا مفاتيح خزائن حكمته، إمامهم وقدوتهم النور الساطع، والقمر الطالع، سيد العجم والعرب، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وآله وسلم، الثمرة الزكية من الشجرة المباركة التي أصلها التوحيد وفرعها التقوى منهجها الكمال الوسطي المعتدل ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:35]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40]، فصلى الله عليه وآله وسلم في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله، صلاة تلوح في السماوات آثارها، وتعلو في جنان الخلد أنوارها، وتطيب في مشاهد الأنبياء أخبارها، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه المطهرين المجتبين، حفاظ الشريعة وحماة الدين، ومن قال بقولهم ونسج على منوالهم إلى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فأهل التصوف هم وراث السر المحمدي، ذلك السر الرباني الذي سرى في البتول الزهراء وعليٍ والحسن والحسين عليهم السلام، وعبد الله بن عباس، والعشرة المبشرين، والأئمة المهديين رضوان الله عليهم أجمعين، وأزهر السر في أوس ويحيى بن زيد والحسن البصري وأصحاب اليقين وأهل التمكين أوضح معناه الكتاب: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65]، وحدد وعاءه الخطاب من الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم على ألسنة الناقلين، فيما رواه البخاري في الصحيح: عن أبي هريرة ﷺ قال: (**أخذت من رسول الله وعائين وعاء بثثته، ووعاء لو بثثته لقطع مني هذا الحلقوم**) صححه السخاوي في المقاصد الحسنة عن أبي هريرة.

وقد أثنت العصور والدهور على أهل التصوف لما علم منهم من التقى والنقاء، والصفاء والوفاء، وحسن الطوية والاجتهاد في الطاعات، ومجاهدة النفس على كبح الشهوات.قال الإمام مالك: «**من تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق**».كما في حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام أبي الحسن في الفقه المالكي (2/ 195) وكما في شرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا علي قاريء (1/ 33).وقال الإمام الشافعي ﷺ:(حبب إِلَيَّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعِشرُة الخلق بالتلطُّف، والاقتداء بطريق أهل التصوف) «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للإمام العجلوني المتوفى سنة ١١٦٢ هـ. ج ١. ص ٣٤١ » وقال: صحبت الصوفية فانتفعت منهم بكلمتين: سمعتهم يقولون: الوقت كالسيف فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، كما في كتاب تأييد الحقيقة العلية للإمام جلال الدين السيوطي ص 15. وقال سفيان الثوري لولا أبو هاشم الصوفي: «ما عرفت دقائق الرياء» كما في الفتاوى الحديثية لابن حجر (327). ونقل ابن الحاج في حواشيه على الدر الثمين عن التستري في رسالته العلمية أن الحسن البصري قال: أول من تكلم في التصوف والفقر الإمام علي عليه السلام، وقال ابن الحاج ويعلم من ذلك أن أول من وضع علم ذلك هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، كما في التراتيب الإدارية (2/ 371).وقال الإمام أحمد: «**عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد**».وقال أيضا: «**لم أعلم أحدا أفضل منهم**»، كما في الجزء الخامس من كتاب الفروع لابن مفلح الحنبلي والتراتيب الإدارية للكتاني (2/ 137).وقال الحافظ أبو نعيم فأما التصوف فاشتقاقه عند أهل الإشارات والمنبئين عنهم بالعبارات من الصفاء والوفاء،

فالصوفي من كفي من حاله، ونُعم من ماله وأعطي من عقباه، وحُفظ من حظ دنياه، إنهم أعلام الهدى لعدولهم عن الموبقات، واجتهادهم في القربات، وتزودهم من الساعات وحفظهم للأوقات، فسالك منهجهم ناج من الغمرات، وسالم من الهلكات، أه، كما في الحلية (1/ 18).وأما ابن تيمية فإنه وصف الصوفية بأنهم صديقو هذه الأمة كما في رسالته «الصوفية والفقراء» وذلك في أول كتابه التصوف الواقع في الفتاوى برقم (11).وقال الإمام الذهبي في الموقظة: «... وهو مقام خطر إذا القادح في محقّ الصوفية داخل في حديث ((من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة)).وقال الإمام الشاطبي عن الصوفية »فقد علم منهم المحافظة على حدود الشريعة ظاهرا وباطنا، وهم القائمون بأحكام السنة على ما ينبغي، المحافظون على اتباعها...« كما في الموافقات (2/ 207).وقال ابن خلدون وهذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء لم تزل عند سلف الأمة وكبارهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية (من مقدمة ابن خلدون: تصنيف علم التصوف كأحد العلوم الشرعية).

فالصوفية غرر الناس، طهرهم الله من الأرجاس في كل عصر ومصر، مأوى الخيرات ومآزر البركات، على أيديهم انتشر الإسلام، وعمّ الأنام الوئام ربطوا القلوب بمحبة علام الغيوب فلم يستحوذ عليهم الشيطان، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:23]. ورثوا العلوم كابرا عن كابر، عن أكابر الصحابة كالإمام علي وأبي بكر الصديق وحارثة ثم القاسم بن محمد، وجعفر الصادق، فهم حماة الشريعة وورّاثها، ومنبع الحقائق وأساطينها، سرَرْ الناس، ومفخرة الجلّاس، برزت على أكتافهم دولة الإسلام،

وارتفعت على سواعدهم ألوية السلام وبعد أن ساءت الأحوال واضمحلت الأفعال، وكثرت الأقوال قويت لهجة المارقين، على الصفوة من المتقين، فأصبح منهج التقرب سبّة، واتباع منهجهم خيبة، وأنّى للقاصد في هذا الزمن أن يبلغ شأوهم، أو يسلك دربهم فضلا عن أن يوسم بهم، ويحسب من أشياعهم، فأين الثرى من الثريا، ومجمل التاريخ يمج ذلك التبجح، ويصد ذلك التصفح السافر والغي الظاهر في خيار الأمة، وقد نسي أنه حقق ما حذر منه المصطفى ﷺ بقوله في الحديث الذي أخرجه الترمذي وصححه العراقي: (إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء... وذكر منها ... ولعن آخر هذه الأمة أولها...).فمن بنى منهجه على التصوير والتحقير والتكفير حقق فيه قول المصطفى ﷺ فيما أخرجه أبو نعيم بسند جيد عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رئيت عليه بهجته وكان ردءا للإسلام، غيّره الله إلى ما شاء، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وخرج على جاره بالسب ورماه بالشرك**» قلت يا رسول الله أيهما أولى بالشرك، الرامي أم المرمي، قال: (بل الرامي). صدقت يا سيدي يا رسول الحق يا نور العوالم صلى الله عليك وآلك وسلم، لقد نسي رامي الصوفية عواره وأسس فكره إزاء تلك الطائفة الطاهرة، على عبارات مدسوسة، وآراء مشبوهة في كتب المتأخرين، وأخلاق المدعين لمنهج المتقين، في العصور الغابرة أو عصره الحاضر، فلا سند لهم يعودون إليه يعود لما قبل القرن السابع الهجري، وأغلبها أقوال فندها علماء عصرهم وأقاموا على قائليها الحجة، وبعد ذلك يدعون أنهم (سلفيون)، فبأي سلف تقتدون، والصوفية تقتدي بمنهج الصحابة والتابعين من أخيار قرون الخيرية التي قال فيهم الرسول الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وآله وسلم: **(خيرُ القرونِ قرْني، ثمَّ الَّذين يلونَهم، ثمَّ الَّذين يلونَهم، ثمَّ يأتي قومٌ يشهدونَ ولا يُستشهدونَ، وينذُرونَ ولا يوفونَ، ويظهرُ فيهم السِّمَنُ)** صححه ابن رجب في جامع العلوم والحكم عن عدد من الصحابة،

لذا أصبح لزاما على أهل العلم أن يكشفوا النقاب عن أحوال تلك الطائفة بالنقول المنصفة لبيان الحق من الباطل، والصادق من المختل، وقبل أن نبرز الحقائق، منارا لدليل واضح لكل موفق، في جميع طبقات المجتمع، علينا أن نبين أن الخلق الحسن مقياس الفضيلة، والفضيلة شاهد على أهل الرذيلة، فالصوفي لا يجسم الحق، ولا يحقر الخلق، ولا يكفر الناس، والثائر عليهم هو من خوارج الخلف، اتسم بالفضاضة والغلظة، وادعاء الدعاوي العريضة، وانتحل رداء أهل الفضيلة، ففضحته المنابر، فأغلقت عليه البصائر ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف:36]. ونعت الحق سمته، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة:41]. وقال أيضا: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: 7].

فالصوفي مفوض في التسليم أو التأويل، والزائغ متقول على دلائل التنزيل، ينفي المتشابه في القرآن، ليغرر بالسذّج والطغام، فيدعي أرباب هذا الفكر الإثبات للصفات وأن سواهم معطلة نفات، افتراء وزورا، هذا منحى سنبينه مفصلا أثناء الحديث عن منهج هذه الطائفة إن شاء الله تعالى.

وأما المنحى الآخر فإنهم يتهمون الصوفية بأنهم حلولية، فهذه دعوى باطلة عارية عن الصواب،لأن منهج الصوفي محق السوى، والحلول يقتضي إيجاد السوى، فالتهمة عائدة إلى من رمى، قال عمر الأصفهاني رحمه الله: التصوف هو التّبرّي عمن دونه، والتخلي عمن سواه. وقال الإمام النووي في رسالته المقاصد: أصول التصوف خمسة:

أولها: تقوى الله في السرّ والعلانية.

وثانيها: إتباع الكتاب والسنة.

وثالثها: الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

ورابعها: الرضا عن الله في القليل والكثير.

وخامسها: الرجوع إلى الله في السرّاء والضراء. أ.هـ.فالصوفي لا يعتقد نفعا ولا ضرا لأحد لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا في الحياة ولا في الممات، وأن كل ما يجري بتدبير الحق. وذلك مع إيمان الصوفي بضر ونفع السبب بإذن الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:15]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى:51].

تعلم الصوفي من هدي الحق مراد الحق من الأسباب، ففي مقام السبب يمضي إلى التوكل على الله، وفي مقام التوكل على الله يمضي إلى السبب. وعلم ذلك في كتاب المسلمين مسطور، وأسرار تلك المعاني في صدور المخلصين موقور، الدّين علم وحلم وذوق وفهم ورأفة ورحمة، وليس الدين شقاشق أقوال، وسفها وانتحال أحوال، وغلظة وتشددا وعنادا، وكبرا وبطرا، وجحدا للسداد فمن كان كذلك يصدق فيه قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»، أي رفض كل تأويل لا يوافق تأويلهم وتخطئة كل حقيقة لا توافق رأيهم. وعلم التصوف مبني على أصول التشريع، ومقامه إحساني، مبني على تزكية الذوق الإيماني الرفيع، وهم للذوق فاقدون وبالفقه جاهلون، ولا نملك إلا أن نحض المسلمين على حسن الظن في الله، والصدق مع أولياء الله، وعدم الالتفات إلى من خذله الله وأشقاه، بالتجرؤ على أصفياء الله، بالسباب والشتم وقول الزور، والكذب على رسول الله، من خلال الكتيبات أو في الصحف أو الإذاعات المسموعة أو المرئية، حتى أصبح في مخيلة أبسط رجل في المجتمع أن التصوف مروق عن الدين، وفلسفة الهنود واليونانيين،

وما هذا إلا محض افتراء، جاء بـه المنغمسـون في الشـهوات، والبعيـدون عـن طريـق المجاهدات، وقد طفحت كتب الأئمة الأعلام بالتعريف بهـذا العلـم وعـن مسـمى هـذه الطائفة، وعن رجالاتها وعن أحوالهم، قال الإمام ابن عجيبة في معراج التشوف إلى حقائق التصوف: علم التصوف هو سيد العلوم ورئيسها، ولباب الشريعة وأساسها كيف لا، وهـو مقام الإحسان الذي هو مقام الشهود والعيان، كما أن علم الكلام تفسـير لمقـام الإيمـان، وعلم الفقه تفسير لمقام الإسلام، وقد اشتمل حـديث جبريـل عليـه السـلام عـلى تفسـير الجميع، فإذا تقرر أنه أفضل العلوم، تبين أن الاشتغال به أفضل ما يتقرب بـه إلى الله تعـالى لكونه سببا للمعرفة الخاصة التي هي معرفة العيان.وهو علم ذوقي تربوي يعرف به كيفيـة السلوك إلى حضرة ملك الملوك، أو تصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضـائل، أو غيبة الخلق في شهود الحق، أو مع الرجوع إلى الأثر في أوله علم ووسـطه عمـل وآخـره موهبة. وثمرته النهوض إلى الطاعة والهروب من المعصية.أما عن أصوله فقال التسـتري: (أصول طريقنا سبعة: التمسك بالكتاب، والاقتداء بالسنة، وأكل الحـلال، وكـف الأذى، وتجنب المعاصي، ولـزوم التوبـة، وأداء الحقـوق). وأركانـه أربعـة كمـا ذكرهـا الإمـام الشعراني: وهي: (الرجوع والعزلة والسهر وقلّة الكلام).أما عـن اشـتقاق الكلمـة فيقـول الإمام الأفخم والعلم الألمع سيدي أحمد الرفاعي الكبير – قدس سره – في البرهان المؤيد (ص63)، أن الأصل في تسمية الصوفية يعود إلى بني صوفة، الذين كانوا قوم زهد وعبـادة وصلاح، فنسب إليهم العباد والزهاد والصالحون، ومورد هذا الاستنباط ممـا حكـاه ابـن هشام في سيرته (1/ 165)، من أنه كان الغوث بن مر بن أدٍّ بن طابخة بن إلياس بـن مضـر يلي الإجازة للناس بالحج من عرفة، وولده من بعده، وكان يقال له ولولده «صوفة» وإنمـا ولي ذلك الغوث بن مر لأن أمه كانت امرأة من جرْهم، وكانت لا تلد، ونـذرت لله إن هـي ولدت رجلا أن تتصدق به للكعبة، عبدا لها يخدمها ويقوم عليها فولـدت الغـوث، فكـان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم، فـولي الإجـازة للنـاس مـن عرفـة، لمكانه الذي كان به من الكعبة، وولده من بعده، حتى انقرضوا، فقال مرّ بن أدٍّ لوفـاء نـذر أمه:

إني جعلــت ربٍّ مــن بنــيّ ربيطـــة بمكـــة العليـــة
فبـــاركنّ لي بهـــا أليـــة واجعله لي من صالح البريـة

وذكر الإمام ابن حجر الهيثمي في الفتاوى الحديثية (ص 325 – 329) من أقـوال العلماء في تعريف الصوفية عدة أقوال واختار أنهم منسوبون للصفة التي كانـت في مسـجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفقراء المهاجرين.وقيل: إلى الصف الأول بين يدي الله عـز وجل، بارتفاع هممهم، وإقبالهم على الله بقلوبهم.وقيل: إلى الصوف، لأنـه لباسـهم غالبـا، لكونه أقرب إلى الخمول والتواضع والزهد، ولكونه لباس الأنبياء صلى الله عليهم وسـلم، وقد جاء أن نبينا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كان يركب الحمار ويلبس الصـوف، وفي حديث: (مرّ بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة، عليهم العباءة يؤمون البيت الحرام)، وفي آخر: (يوم كلم الله موسى عليه السلام كان عليه جبة من صوف، وسراويل من صوف، وكساء من صوف)، وأصل ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه بسند صحيح: (برقم 621) أن النبي ﷺ مرّ على ثنية فقال: (ماهذه؟) قيل: ثنية كذا وكذا، قال: (كـأني أنظـر إلى موسـى يرمي الجمرة على ناقة حمراء خطامها من ليف، وعليه جبة من صوف). أ.هـ.وقال الحسـن البصري: لقد أدركت سبعين بدريا لباسهم من الصوف، وقال اليافعي: وهذا القول الثالث هو المنسوب للاشتقاق اللغـوي، أعنـي النسـبة إلى الصـوف، وقيـل: أصـل هـذا الاسـم (صوفي) من الصفاء، أو من المصفاة، قال أبو الفتح البستي رحمه الله:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي

وبهذا تبين أن كلمة التصوف مهما اختلف في نسبتها فقد وسمت بها طائفة صالحة مباركة. وقد نقل ابن حجر رحمه الله عن العارف الشهاب السهروردي في علة اختفاء هذا الاسم في عهد الرسول ﷺ والتابعين أن شرف الصحبة لرسول الله ﷺ لا تعدلها نسبة.وقد ذكر الإمام أبو نصر السراج في كتابه اللمع (ص42) مثل ذلك، وقال: ألا ترى أنهم (أي الصحابة) هم أئمة الزهاد والعباد، والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين، وغير ذلك، وما نالوا جميع ذلك إلا ببركة الصحبة مع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فاستحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجل الأحوال، ثم ذكر الإمام ابن حجر الهيثمي: أن من رأى الصحابة وأخذ عنهم العلم أحق باسم التابعي لذلك، ثم لما بعد عهد النبوة، واختلفت الآراء، وكدّر شرب العلوم شُربُ الأهوية، وتزعزعت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين وغلبت الجهالات وكثف حجابها، وكثرت العادات وتملك أربابها تزخرفت الدنيا وكثر خطامها، تفردت طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية، واغتنموا العزلة، واتخذوا لأنفسهم زوايا يجتمعون فيها تارة، وينفردون أخرى، أسوة بأهل الصفة، تاركين للأسباب، مبتهلين إلى ربّ الأرباب، أثمر لهم صالح الأعمال سني الأحوال، وتهيأ صفا الفهوم بقبول العلوم، وصار لهم بعد اللسان لسان وبعد العرفان عرفان، كما قال حارثة: (أصبحت مؤمنا بربّي حقا)، لما كوشف بمرتبة في الإيمان غير ما عهد، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يعهدونها، فحرروا لأنفسهم اصطلاحات تشير إلى معارف يعرفونها، وتعرب عن أحوال يجدونها، فأخذ ذلك الخلف من السلف، حتى صار ذلك رسما مستمرا، وخيرا مستقرا في كل عصر وزمان، فظهر هذا الاسم بينهم، وتسموا به، فالاسم سمتهم، والعلم بالله صفتهم،

والعبادة حليتهم، والتقوى شعارهم وحقائق الحقيقة أسرارهم، ثم قال رحمه الله: (ثم ظهرت البدع فحصل التداعي من الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف. وذكر السهروردي أن الصوفي هو الذي يضع كل شيء في موضعه، ويدبر أوقاته وأحواله كلها للعلم يقيم الخلق مقامهم، ويقيم أمر الحق مقامه، ويستر ما ينبغي ستره، ويظهر ما ينبغي إظهاره، كل ذلك مع حضور عقل، وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص، وقد صار قائما في الأشياء بإرادة الله تعالى، لا بإرادة نفسه فلا يرى فضيلة في صورة فقره، ولا في صورة غناه، وإنما يرى الفضيلة فيما يوافقه الحق فيه، ويدخله عليه، ويعلم الإذن من الله في الدخول في الشيء، قال الإمام الأكبر محي الدين بن عربي رحمه الله: (التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا)، وقال الإمام القشيري في رسالته: (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدورات البشرية، ورقاهم إلى محل المشاهدات، بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ووفقهم للقيام بآداب العبودية) أهـ.وقد أغرى ذلك أهل العلم بالإكثار من ذكرهم، والثناء عليهم في كتبهم.فهذا الخطيب البغدادي يقول: في ترجمة عبد الله بن المبارك الصوفي الزاهد: (وكان من الربانيين في العلم، ومن المذكورين في الزهد، خرج من بغداد يريد ثغر المصيصة فصحبه الصوفية) كما في تاريخ بغداد (10 / 157).وهاهو الحافظ الخليل يقول في كتابه الإرشاد: (لابن المبارك من الكرامات ما لايحصى، يقال: إنه من الأبدال، وقد صُدرت تراجم الصوفية باسمه).ويقول الإمام الرباني والمحدث الكبير سفيان بن عيينة: نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك فما رأيت لهم فضلا عليه إلا بصحبتهم النبي ﷺ،

وغزوهم معه. كما في الكواكب الدرية (1/ 176)، وصفة الصفوة (4 / 147).وهذا ابن دقيق العيد يقول: (حضرت بالمنصورة مع الشيخ أبي الحسن الشاذلي وما رأيت أعرف بالله منه). كما في تأييد الحقيقة العلية للسيوطي (ص 131).وقد ذكر الحافظ السيوطي في كتابه الموسوم ب(حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) (4/ 1414)، والمقريزي في الخطط (2/ 415): (أن صلاح الدين الأيوبي أول من أنشأ خانقاه للصوفية بمصر، ووقف عليها أوقافا كثيرة، وكان سكانها يعرفون بالعلم والصلاح، وولي مشيختها الأكابر ومن ترجي بركتهم، مع ما كان له من الوزارة والإمارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر). أ.هـ. وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: - وهو الذي اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته- يقول: (لقد علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق) أ.هـ. كما في المنقذ من الضلال (ص 131) ويقول أيضا: (الدخول مع الصوفية فرض عين؛ إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام). وهنا أقول أن التقوى لا تعني فقط معرفة الحق بل الالتزام به، أي تربية النفس على ما عرفت من الحق وإلزامها به، تحقيقا للعلم اللدني الذي لا يتحقق إلاّ بالتقوى (واتقوا الله ويعلمكم الله)، وذكر ابن كثير المفسر والمحدث والمؤرخ المعروف في كتابه البداية والنهاية: (13/ 110) في ترجمة الموفق بن قدامة الحنبلي الصوفي صاحب المغني – الذي يعدّ مصدرا مهما من مصادر الفقه الحنبلي – مانصه: (وكانت له أحوال ومكاشفات).ونصّ الحافظ الذهبي أن ابن قدامة ممن سلك طريق التصوف على العارف بالله عبد القادر الجيلاني كما فسر أعلام النبلاء (22/ 166) وذكر نحو كلام ابن كثير.وأما ابن تيمية فقد أثنى على أئمة التصوف في أكثر من موطن في الفتاوى (10/ 516-517) حيث يقول وبالحرف الواحد: أما المستقيمون السالكون كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني

، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد البغدادي وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني – قدس الله روحه- والشيخ حماد أبي البيان . (وأضيف) (وأضيف من عندي كذلك الشأن عند الشيخ أحمد زروق والشيخ عبدالسلام الأسمري الفيتوري الإدريسي والشيخ أحمد التيجاني والشيخ محمد ماضي أبوالعزائم والشيخ الخدّيم أحمد بمب، والشيخ أحمد بن إدريس وغيرهم من المتأخرين) فهم لا يسوِّغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج من الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دلّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، ومن هذا الكثير في كلامهم .وقد ذكر في كتابه شرح حديث النزول (ص 352-353) ما نصه: (الجنيد ﷺ سيّد الطائفة، إمام هدى) إلى أن قال: (ومن خالفه فمن أهل الضلال) كما وقد ذكر في الجزء العاشر من الفتاوى (ص 686)، (وكان ﷺ سيد الطائفة ومن أحسنهم تعليما وتأديبا وتقويما) أ.هـ.

فمن هذه النصوص السابقة تبين لنا أن التصوف ليس مستنبطا من أصول لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولا منتسبا إلى أصول غير إسلامية وعربية، كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعوا أسماء مبتكرة، فأطلقوا اسم التصوف على الرهبنة البوذية، والكهانة النصرانية، والشعوذة الهندية، فقالوا: تصوف بوذي، وتصوف هندي، وتصوف نصراني، وتصوف فارسي، يريدون بذلك تشويه اسم التصوف من جهة، واتهام التصوف بأنه راجع في نشأته إلى هذه الفلسفات الضالة، وإشغال المسلمين بالأسماء عن المسميات، وبالقشور عن اللبّ والجوهر، مع أن ذلك قد نفاه وأنكره بعض المستشرقين أنفسهم، حيث ذكر المستشرق نيكلسون نقلا عن المستشرق (نولدكه) منكرا أن تكون الكلمة راجعة إلى أصل يوناني أو بوذي أو غيره، ثم قال

: لا يوجد دليل إيجابي يرجع افتراض أن الكلمة مشتقة من الأصل اليوناني (صوفوس، أو صوفيزم) ومعناها بلغتهم (الحكمة)، في حين أن نسبتها إلى الصوف تؤيدها نصوص من أقوال الكتاب المسلمين أنفسهم.فهذا هو الحق الذي ليس عنه محيص، وليس بعد الحق إلا الضلال. لذلك وجب على كل مؤمن مخلص أن ينصح المؤمنين بالتحري مما يقرؤون ويسمعون وأن يعرفوا الحق ليعرفوا الرجال، كما قال علي عليه السلام: (نعرف الرجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرجال).فينبغي علينا ألا نسم تلك الطائفة الطاهرة بما نراه في زماننا هذا من التستر خلف تلك الطائفة، فقد حذّر الإمام ابن حجر الهيثمي رحمه الله وغيره من أولئك المتسترين تحت عباءة الرجال، تسموا باسمهم، وليسوا منهم في شيء، بل هم في غرور وباطل وغلط، يتسترون باسم الصوفية توقيا تارة، ودعوى أخرى.وبعض هؤلاء ينهجون منهج أهل الإباحة ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله، وأن الترسم بمراسم الشريعة رتبة العوام، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة، إذ كل حقيقة ردتها الشريعة زندقة، وبعضهم يقول بالحلول، ويزعمون أن الله تعالى حلّ فيهم، ويحل في أجسامهم مصطفيها، ويسبق إلى فهومهم معنى من النصارى في اللاهوت والناسوت، تعالى الله أن يحل في شيء أو يحلّ به شيء، ومنهم من يستحل النظر إلى المحرمات إشارة إلى هذا الوهم، وبعضهم يزعمون أنهم مجبورون على الأشياء لا فعل لهم مع الله، ويسترسلون في المعاصي وكل ما تدعو إليه النفوس، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة والاغترار بالله، والخروج من الملّة وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام، وقد سئل سهل ﷺ عن رجل يقول أنا كالباب لا أتحرك إلا إذ حرك، فقال: هذا لا يقوله إلا أحد رجلين إما صديق إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية، وإما زنديق إحالة للأشياء على الله، وإسقاطا للوم عن نفسه، وانخلاعا عن الدين ورسمه. أ.هـ. كما في الفتاوى الحديثية.وبعد هذا تبين لنا الحق من الباطل، فعلى كل جاهل بأمر هذه الطائفة أن يحسن الظنّ فيهم، فقد تضافرت أقوال أهل العلم أن من لا يحسن الظن فيهم يخشى عليه من سوء الخاتمة. والعياذ بالله.

وخلاصة لما تقدم نقول إن التصوف أحد أركان الدين الثلاثة (الإسلام، الإيمان، الإحسان)، فمثلما اهتم الفقه بتعاليم شريعة الإسلام، وعلم العقيدة بالإيمان، فإن التصوف اهتم بتحقيق مقام الإحسان (وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم في صحيحه، وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله، أي الوصول إلى معرفته والعلم به، (قال ابن عطاء الله السكندري في الحكم العطائية: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجَلَّ ربُّنا أن يتصل به شيء، أو يتصل هو بشيء)، وذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة، وتحليته بالأخلاق الحسنة. وهذا المنهج يقولون أنه يستمد أصوله وفروعه من القرآن والسنة النبوية واجتهاد العلماء فيما لم يرد فيه نص، فهو علم كعلم الفقه له مذاهبه ومدارسه ومجتهديه وأئمته الذين شيدوا أركانه وقواعده (كغيره من العلوم) جيلاً بعد جيل، حتى جعلوه علما سموه علم التصوف، وعلم التزكية، وعلم الأخلاق، فألفوا فيه الكتب الكثيرة بينوا فيها أصوله وفروعه وقواعده، ومن أشهر هذه الكتب: قوت القلوب للشيخ أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، والحِكَم العطائية للشيخ ابن عطاء الله السكندري،وقواعد التصوف، للشيخ أحمد زروق، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي، والرسالة القشيرية للإمام القشيري، والوصية للشيخ عبد السلام الفيتوري الإدريسي الحسني،وكتاب العقد النفيس في نظم جواهر التدريس للشيخ أحمد بن إدريس الميسوري الإدريسي، وكتاب من جوامع الكلم للشيخ محمد ماضي أبو العزائم وغيرها.

ماذا قال كبار الفقهاء في التصوف

إذا أردنا أن نعرف التصوف في الاصطلاح فلا بد من الرجوع إلى أقوال مشايخ وفقهاء الصوفية في ماهية التصوف وكذلك أقوال أصحاب الطرق.ومنذ نشأة الصوفية إلى يومنا هذا حدث في التصوف تشعبات كثيرة وكثرت أقوالهم في حقيقة التصوف إلى ما يزيد على ألف قول، وكل قول من هذه الأقوال يشير إلى أهم جانب في التصوف عند قائله سواءً بالنظر إلى الطريقة أو الخلق أو الغاية، أو بالنظر إلى حاجة الصوفي أو من حوله وبالنظر إلى حاله والخطأ الذي يريد أن يقومه ولا تخلو أقوالهم من جانب في الجوانب التالية :

1 - **التصوف بمعنى الزهد:** قال سمنون : التصوف أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء.وقال معروف الكرخي: التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق.وقال النوريالبغوي: المتصوف من لا يتعلق بشيءٍ ولا يتعلق به شيء.وقال ذو النون المصري: الصوفي من لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب.

2 - **التصوف بمعنى الأخلاق:** قال أبو محمد الجريري : التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دنى .وقال الكتاني: التصوف خُلق فمن زاد عليك في الخُلق زاد عليك في الصفاء.

3- **التصوف بمعنى الصفاء:** -قال سهل بن عبد الله : الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله عن البشر واستوى عنده الذهب والمدر. وقال بشر الحافي: الصوفي من صفا لله قلبه . وقال الشبلي : التصوف الجلوس مع الله بلا هم.

4-التصوف بمعنى المجاهدة: قال الجنيد : التصوف عنوة لا صلح فيها. والمراد بالعنوة الجد والتعب والمراغمة .وقال عمرو بن عثمان المكي : التصوف أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في الوقت.

5-التصوف التزام بالشريعة: -قال أبو حفص عمرو بن سَلَمة النيسابوري: حسن آداب الظاهر عنوان حسن آداب الباطن لأن النبي ﷺ قال : «**لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**».وقال الجنيد : التصوف بيت والشريعة بابه،وقال محمد بن أحمد المقرئ: التصوف استقامة الأحوال مع الله،وقال أبو عمر بن الجنيد: التصوف الصبر تحت الأمر والنهي.

6 - التصوف بمعنى التسليم الكامل لله:قال الأستاذ أبو سهل الصعلوكي: التصوف الإعراض عن الاعتراض.وقال أبو محمد رويم بن أحمد بن يزيد: التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده. وقال أبو يعقوب المزايلي عن التصوف: حال تضمحل فيه معالم الإنسانية.

7- التصوف بمعنى الإخلاص « الغاية وجه الله»:قال الجنيد : التصوف أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة . وقال ذو النون المصري: أهل التصوف هم قوم آثروا الله عز وجل على كل شيء ، فآثرهم الله على كل شيء.وقال أبو الحسين النوري : التصوف ترك نصيب النفس جملة ليكون الحق نصيبها.

8- التصوف بمعنى الارتباط الروحي بالله:قال أبو نصر الحصري: الصوفي الذي لا تقله أرض ولا تظله سماء. وقال أبو الحسن الخرقاني: ليس الصوفي بمرقعته وسجادته، ولا برسومه وعاداته بل الصوفي من لا وجود له .ونُسب إلى الجنيد قوله : التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به.

9- التصوف ترك التكلف والشكليات:قال الجنيد : إذا رأيت الصوفي يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب.وقال حماد الدينوري : التصوف أن تظهر الغنى وأن تؤثر أن تكون مجهولاً حتى لا يعرفك الخلق وأن تكف عن كل ما لا خير فيه.

10- التصوف بمعنى الطريق المخصوص للسالكين: قال الجنيد : الصوفية هم أهل بيت واحد ، لا يدخل فيهم غيرهم. وقال أبو سليمان الداراني : التصوف أن تجري على الصوفي أعمال لا يعلمها إلا الحق وأن يكون دائماً مع الحق على حال لا يعلمها إلا هو.

وبالنظر في الأقوال المتقدمة نجد أن كل تعريف من تعريفات أئمة التصوف والمنتسبين إليه يشير إلى جانب من الجوانب، وهذه الجوانب مجتمعة تشير إلى جوانب عظيمة من جوانب هذا الدين فالتصوف السني ينبغي أن يتوفر فيه جميع ما ذكر من زهد وإخلاص ومجاهدة وخلق كريم وتسليم لرب العالمين والتزام بشرعه وترك للتكلف، وأن يلتزم المنتسب إلى الله تعالى بالعبادة الدائمة لله عز وجل كما أمر، والبعد عن كل ما نهى الشارع عنه، وعن البدع المضلة وعن الفكر الغريب والفلسفات الباطلة.وبعد عرض تلك التعريفات يترجح تعريف ابن خلدون للتصوف لأنه يدل دلالة واضحة على معاني التصوف المتعددة وعلى أحوال الصوفية واهتماماتهم وهو **(العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة).**

ومما قاله كبار فقهاء السلف في التصوف نورد ما يلي:-

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى (توفي سنة 676 هـ) في رسالته «مقاصد الإمام النووي في التوحيد والعبادة وأصول التصوف»: (أصول طريق التصوف خمسة:

1 -تقوى الله في السر والعلانية.

2- اتباع السنة في الأقوال والأفعال.

3- الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

4-الرضى عن الله في القليل والكثير.

5- الرجوع إلى الله في السراء والضراء.

وها هو ذا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي(توفي سنة 505 ه)، رحمه الله تعالى: يتحدث في كتابه «المنقذ من الضلال» عن الصوفية وعن سلوكهم وطريقتهم الحق الموصلة إلى الله تعالى فيقول: (ولقد علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السيرة وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق...ثم يقول ردا على من أنكر على الصوفية وتهجم عليهم: وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها- وهي أول شروطها- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله).ويقول أيضاً بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته: (الدخول مع الصوفية فرض عين، إلا يخلوأحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام).

وقال العلامة الكبير والمفسر الشهير الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى (توفي سنة 606 هـ) في كتابه (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين): الباب الثامن في أحوال الصوفية: (اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ، لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن..) وقال أيضا: (والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله عز وجل، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين).وقال أبو الفضل عبد الله الصّدّيق الغماري: إن التصوف كبير قدره، جليل خطره، عظيم وقعه، عميق نفعه، أنواره لامعة، وأثماره يانعة، واديه قريع خصيب، وناديه يندو لقاصديه من كل خير بنصيب، يزكي النفس من الدنس، ويطهر الأنفاس من الأرجاس، ويرقي الأرواح إلى مراقي الفلاح، ويوصل الإنسان إلى مرضاة الرحمن. وهو إلى جانب هذا ركن من أركان الدين، وجزء متمم لمقامات اليقين.خلاصته: (تسليم الأمور كلها لله، والالتجاء في كل الشؤون إليه. مع الرضا بالمقدور، من غير إهمال في واجب ولا مقاربة المحظور. كثرة أقوال العلماء في تعريفه، واختلفت أنظارهم في تحديده وتوصيفه، وذلك دليل على شرف اسمه ومسماه، ينبئ عن سموغايته ومرماه.. وإنما عبر كل قائل بحسب مدركه ومشربه. وعلى نحواختلافهم في التصوف اختلفوا في معنى الصوفي واشتقاقه.ثم: إن التصوف مبني على الكتاب والسنة، لا يخرج عنهما قيد أنملة.والحاصل: أنهم أهل الله وخاصته، الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم .ومن أوصاف هذه الطائفة: الرأفة، والرحمة، والعفو، والصفح، وعدم المؤاخذة.أما تاريخ التصوف فيظهر في فتوى للإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه الله، فقد سئل عن أول من أسس التصوف؟

وهل هوبوحيٍ سماوي؟ فأجاب: (أما أول من أسس الطريقة فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماويٍ في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هوأحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعد ما بينها واحدا واحدا ديناً بقوله: هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم، وهو الإسلام والإيمان والإحسان.فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة، وأول من تسمى بالصوفي في أهل السنة أبوهاشم الصوفي المتوفي سنة 150 وكان من النساك، ويجيد الكلام، وينطق الشعر كما وصفه الحفاظ.وقال سلطان العلماء (العز) عز الدين بن عبد السلام (توفي سنة 660 هـ) رحمه الله تعالى: (قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم، مما يدلك على ذلك ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات، فإنه فرع عن قربات الحق لهم، ورضاه عنهم، ولوكان العلم من غير عمل يرضي الحق تعالى كل الرضى لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم، ولو لم يعملوا بعلمهم، هيهات هيهات) «المصدر:«نور التحقيق» للشيخ حامد صقر .وقال العلامة الشيخ محمد أمين الكردي:ينبغي لكل شارع في فن أن يتصوره قبل الشروع فيه ليكون على بصيرة به، ولا يحصل التصور إلا بمعرفة المبادئ العشرة المذكورة. فحدّ التصوف: هو علم يُعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المذموم منها، وتحليتها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى، والفرار إليه. وموضوعه: أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية.وثمرته: تهذيب القلوب، ومعرفة علام الغيوب ذوقاً ووجداناً، والنجاة في الآخرة، والفوز برضا الله تعالى، ونيل السعادة الأبدية، وتنوير القلب وصفاؤه بحيث ينكشف له أمور جليلة، ويشهد أحوالاً عجيبة، ويُعاينُ ما عميت عنه بصيرة غيره. وفضله: أنه أشرف العلوم ؛ لتعلقه بمعرفة الله تعالى وحبه، وهي أفضل على الإطلاق.ونسبته إلى غيره من العلوم: أنه أصل لها،

وشرط فيها، إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى الله، فنسبته لها كـالروح للجسـد، وواضعه: الله تبارك تعالى، أوحاه إلى رسوله ﷺ والأنبياء قبله ؛ فإنه روح الشرائع والأديـان المنزلة كلها. واسمه: علم التصوف، مأخوذ مـن الصـفاء، والصـوفي: مَـن صـفا قلبُـه مـن الكدر، وامتلأ من العِبَر، واستوى عنده الذهبُ والمَدَر، واستمداده: مـن الكتـاب والسـنة والآثار الثابتة عن خواص الأمّة. وحكم الشارع فيه: الوجوب العيني ؛ إذ لا يخلو أحد مـن عيب أومرض قلبي، إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام. ومسـائله: قضـاياه الباحثـة عـن صفات القلوب، ويتبع ذلك شرح الكلمـات التـي تُتَـداول بـين القـوم (كالزهـد والـورع والمحبة والفناء والبقاء). ويقول العلامة الشـريف الجرجـاني في (التعريفـات): التصـوف مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل، وهـو تصـفية القلـب عـن مواقـف البريـة، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوي النفسـانية، ومنازلـة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ما هو أولى على السرمدية، والنصـح لجميع الأمة، والوفاء لله تعـلى عـلى الحقيقـة، واتبـاع رسـول الله ﷺ في الشـريعة. ويقـول الدكتور أبو الوفا التفتازاني في كتابه (مدخل إلى التصوف الإسلامي): ليس التصوف هروبا من واقع الحياة كما يقول خصومه، وإنما هو محاولة الإنسان للتسلح بقيم روحية جديدة، تعينه على مواجهة الحيـاة الماديـة، وتحقـق لـه التـوازن النفسـي حتـى يواجـه مصـاعبها ومشكلاتها. وفي التصوف الإسلامي من المبادئ الإيجابية مـا يحقـق تطـور المجتمـع إلى الأمام فمن ذلك أنه يؤكد على محاسبة الإنسان لنفسه باستمرار ليصحح أخطاءها ويملهـا بالفضائل، ويجعل فطرته إلى الحياة معتدلة، فلا يتهالك على شهواتها ويـنغمس في أسـبابها إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه وربه، فيشقى شقاء لا حد لـه. والتصـوف يجعـل مـن هـذه الحياة وسيلة لا غاية، وبذلك يتحرر تماما من شهواته وأهوائه بإرادة حرة. وهـذا مؤسـس علم الإجتماع المؤرخ صاحب المقدمة ابن خلدون (توفي 808 هـ): يقول في كلامـه عـن علم التصوف: (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة،

وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية) المصدر: مقدمة ابن خلدون.

ومن كبار العلماء المتأخرين يقول الشيخ محمد أبو زهرة:نحن في عصرنا هذا أشد الناس حاجة إلى متصوف بنظام التصوف الحقيقي وذلك لأن شبابنا قد استهوته الأهواء وسيطرت على قلبه الشهوات.. وإذا سيطرت الأهواء والشهوات على جيل من الأجيال أصبحت خطب الخطباء لا تجدي، وكتابة الكتاب لا تجدي، ومواعظ الوعاظ لا تجدي، وحكم العلماء لا تجدي، وأصبحت كل وسائل الهداية لا تجدي شيئا.إذ لا بد لنا من طريق آخر للإصلاح، هذا الطريق أن نتجه إلى الاستيلاء على نفوس الشباب، وهذا الاستيلاء يكون بطريق الشيخ ومريديه، بحيث يكون في كل قرية وفي كل حي من أحياء المدن وفي كل بيئة علمية أو اجتماعية رجال يقفون موقف الشيخ الصوفي من مريديه.

ومن كبار أئمة السلف من قرون الخيرية عن الإمام أبو حنيفة: نقل الفقيه الحنفي صاحب الدر المختار: أن أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى قال: (أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أباذي، وقال أبوالقاسم: أنا أخذتها من الشبلي، وهو من السري السقطي، وهومن معروف الكرخي، وهومن داود الطائي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة ﷺ، وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله. «ثم قال صاحب الدر معلقا»: فياعجباً لك يا أخي ! ألم يكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادات الكبار؟ أكانوا متهمين في هذا الإقرار والافتخار، وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والطريقة؟ ومن بعدهم في هذا الأمر فلهم تبع، وكل من خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع.

ولعلك تستغرب عندما تسمع أن الإمام الكبير، أبا حنيفة النعمان رحمه الله تعالى، يعطي الطريقة لأمثال هؤلاء الأكابر من الأولياء والصالحين من الصوفية.يقول ابن عابدين رحمه الله تعالى، في حاشيته متحدثا عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى، تعليقا على كلام صاحب الدر الآنف الذكر: (هوفارس هذا الميدان، فإن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس، وقد وصفه بذلك عامة السلف، فقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في حقه: إنه كان من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحل لا يدركه أحد، ولقد ضرب بالسياط ليلي القضاء، فلم يفعل. وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: ليس أحد أحق من أن يقتدى به من أبي حنيفة، لأنه كان إماما تقيا نقيا ورعا عالما فقيها، كشف العلم كشفا لم يكشفه أحد ببصر وفهم وفطنة وتقى. وقال الثوري لمن قال له: جئت من عند أبي حنيفة: لقد جئت من عند أعبد أهل الأرض). وقال فيه الشافعي الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.ويقول إمام المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، الإمام مالك رحمه الله تعالى (توفي 179 هـ): (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق) المصدر: حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزيه في الفقه المالكي. وشرح عين العلم وزين الحلم للامام ملا علي قاري.ويقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى (توفي 204 هـ):(صحبت الصوفية فلم استفد منهم سوى حرفين، وفي رواية سوى ثلاث كلمات: قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك. وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. وقولهم: العدم عصمة). المصدر «تأييد الحقيقة العلية» للامام جلال الدين السيوطي .وقال الشافعي أيضا: (حبب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف) المصدر: «كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث عل ألسنة الناس» للامام العجلوني.وكان الإمام أحمد بن حنبل (توفي 241 هـ) رحمه الله تعالى قبل مصاحبته للصوفية

يقول لولده عبد الله رحمه الله تعالى: (يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه. فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي، وعرف أحوال القوم، أصبح يقول لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة). المصدر: «تنوير القلوب» للعلامة الشيخ أمين الكردي.وقال العلامة محمد السفاريني الحنبلي رحمه الله تعالى عن إبراهيم بن عبد الله القلانسي رحمه الله تعالى أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى قال عن الصوفية: (لا أعلم قوما أفضل منهم. قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة...). المصدر:«غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» لمحمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي.وقال الشيخ تاج الدين عبد الوهاب السبكي(توفي سنة 771 هـ) رحمه الله تعالى: في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» تحت عنوان الصوفية: (حياهم الله وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم. وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعبا ناشئا عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها، بحيث قال الشيخ أبومحمد الجويني: لا يصح الوقف عليهم لأنه لا حد لهم. والصحيح صحته، وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة... ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم).

ما يجب على المريد معرفته

حجة في الرد على منكري التصوف

الحمد لله على نعمائه وكفاية آلائه، حمدا يعرج به براق التوفيق إلى جناب المحمود في مقام الحق، يرفعنا بإذن الله إلى رفيع درجات التحقق بشكر الوهاب الذي سخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعا منه علنا نبلغ أسباب التقوى ومدارج العقل لنكون من الذين تواصوا بالحق الذي عقلوه عنه بمنته وفضله، فالتزموا بما شرّع وأنزل التزام الذين تواصوا عليه بالصبر.والصلاة والسلام على حبيبنا وقدوتنا محمد رسول الله الصادق الأمين، الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ثم التحق بالرفيق الأعلى رشيدا، مخلفا فينا راية الحق باهرة شمّاء، من تمسك بها هدي واسترشد، ومن زاغ عنها ضل سعيه في الحياة الدنيا ولن يجد من دون الله ملتحدا، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأوليائه من أهل الذوق الصافي الصوفي المحمدي الذين تتنزل بحضورهم الرحمات، وتتجاوب بذكرهم السموات ذلك لأنهم العباد والزهاد والذُّكَّار، يملؤون الأرض والسماء بأريج عطر طيب يفوح شذى من عطر المحبين الطيبين، ذلك لأنه عطر المحبة، عطر أولياء الله الصالحين الذي لا يشم شميمه إلا من كان خالصا القلب تقيا.

خصصنا هذه الفقرة لأهل الطريق ومحبي المنهج الصوفي الكريم، لذلك سيكون الحديث بلغة تفهمونها، حديث الحجة لمن يريد الحجة، فكلكم يؤمن بالتصوف منهجا وبالطريق سبيلا وبالقرآن رائدا وبالرسول قائدا وبالله ربا وبالإسلام دينا، بيد أنكم تتبعون طرقا وتنتهجون سبلا عرفت في تاريخ الإسلام باسم الصوفية، والذين في قلوبهم مرض دفعهم للتأرجح بين المحكم والمتشابه من آيات الله، بغيتهم الفتنة والتفريق بين المسلمين عن قصد أو جهل، لذلك هم ينكرون هذا الاسم ويزعمون أنه بدعة وضلالة ويقولون محتجين بقول الرسول صلي الله عليه وآله وسلم «وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»، (وهو حديث ضعيف لم يرد عند أحد قبل اين تيمية)، ليكون الحكم عليكم حكما بالنار، لا لشيء إلا لأنكم ابتدعتم في «زعم هؤلاء القوم» بدعا ما أنزل الله بها من سلطان تحت ما عرف بالتصوف، ولهذا سنبدأ بالأصل الذي زعم الزاعمون أنه بدعة، فإن ثبت الأصل تمت الفروع حتى التحقت بالسماء لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وإن اهتز الأصل ولم يكن له قرار كان فرعه ضاويا هزيلا لا يحمل ثمرة ولا يورِّق غصنا. ومن هذا يكون السؤال:

التصوف.. ما هو وما هو مصدره؟.

اللغة العربية المباركة التي اختارها الخالق ليخاطب بها عباده وعبيده وختم بهذا الخطاب رسالاته، فتشرفت بالذكر المبارك الحكيم، تبين لنا من تتبع دلالة المفردة، أن الاسم مستمد من زيٍّ معيّن من لبس القميص الصوفي الخشن زهدا، ولكن الذين في قلوبهم مرض، يتخذون من هذا الاسم هزوا، ويتخذونكم به سخريا، ذلك لأنهم يجعلونكم بهذا الاسم شركاء مع الخروف ويقولون «لو كان التصوف بالصوف لطار الخروف»، بيد أن الذين يسخرون من هذا الاسم، فاتهم أن لكل زي دلالة اعتبارية تميز أشخاصا بصفة معينة .فما هي شارات الصوفي

وما هي شارات من تصوف؟ : العلماء الذين بحثوا عن تاريخ التصوف فردوه إلى أصوله من القرآن والسنة وحياة الصحابة، وأرجعوا دلالات لبس الصوف إلى عدد من المضامين التربوية، ذلك لأن الأصل في صدر الإسلام أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتقللون من متاع الدنيا، وكانوا فيها من الزاهدين، حتى أن الواحد منهم كان يبيت الليالي ذوات العدد من غير أن يدخل في جوفه طعام، وكانوا في ذلك يتأسّون بالرسول صلي الله عليه وآله وسلم، الذي آثر أن يجوع يوما ويأكل يوما غير أن الله عرض عليه بطحاء مكة ذهبا فآثر أن يكون عبد الله ورسوله، فتأسيا بهذا الرسول الكريم الذي بعث في الأميين وهو منهم ليتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فكان الصحابة يعيشون هذا الخلق الكريم وهذا النهج التربوي السليم، حتى إذا انقضى عصر النبوة وانقضى عصر الخلافة الراشدة وجد الناس الذين عاصروا الصحابة أن عددا من المسلمين قد استهوتهم الدنيا وأخذوا من بهرجها ما أنتج لهم، وشغلتهم بل وصرفتهم عن كثير من مهمات أمورهم الدينية في مختلف المجالات، فحاول الربانيون فيهم أن يعودوا بهم إلى ما كان عليه الرسول صلي الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه رضوان الله عليهم، ليكونوا بذلك من الغرباء الذين يُحيون ما اندثر من سنته صلي الله عليه وآله وسلم، حتى يكونوا على ما كان عليه المصطفى صلي الله عليه وآله وسلم وأصحابه، فدعوا الناس إلى التَّقلُّل من الدنيا، ودعوا الناس إلى الرجوع إلى الحق، وأظهروا ذلك بعمل ملحوظ مشاهد، ومن ذلك لبسهم ما اخشوشن من الثياب، وقد وجدوا أن الصوف هو أكثر الثياب تحملا لمتطلبات الزهد والتقشف فاتخذوه زيا، وهذا الزي الذي اتخذه كبار الزهاد في صدر الإسلام هو الذي عرفت به طائفة من المسلمين فيما بعد، وحينها تقعّدت قواعد المذاهب الإسلامية على مختلف مناحي العلم،

سواء كان علما عقديا أو علما فقهيا، ولهذا نشأ أن كلمة صوفي عرفت بالضبط سنة خمس وسبعين من الهجرة، يعني في القرن الإسلامي الأول، والصحابة يومئذ متوافرون لأن آخر الصحابة مات سنة مائة وواحدة، والفرق بين مائة وواحدة وخمس وسبعين فرق كبير، من هنا فإن الذي يزعم أن كلمة صوفي وتصوف ما عرفت إلا بعد أن انقضى عهد الصحابة، نقول له زعمك باطل وعلمك قاصر ذلك لأن المسلم إذا حكم في مسألة ما، عليه أن يتحقق ويدقق ويجمع أصولها حتى لا يتهم بالتقصير فيما يقول. فأول من سمي بالصوفي هو أبو هاشم يحيى بن زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. أبو هاشم الصوفي يحيى الشهيد الذي ثار كثورة أبيه زيد، وزيد هذا هو ولد علي ابن الحسين (زين العابدين) وأخ محمد الباقر، ومحمد الباقر هو والد جعفر الصادق الذي عاصر أبا حنيفة ومالك وكان من مشايخهم، ولهذا عندما يقرأ الدارس عن تاريخ التصوف يجد أن كلمة صوفي هذه لم تقتصر على أبي هاشم هذا، وإنما عرفها الحسن بن يسار المشهور بالحسن البصري، وهو بصري النشأة مدني المولد، إذ ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، فقد ولد سنة إحدى وعشرين في منزل أم سلمة أم المؤمنين لأن أمه كانت مولاة لأم سلمة وأبوه له ولاء لبني هاشم في المدينة فتربى الحسن في بيت النبوة، ويقول ابن سعد صاحب الطبقات وهو أقدم تاريخ معروف عند أهل العلم، أن أم الحسن هذه كانت تغيب عن البيت في بعض حاجاتها فيبكي الحسن وهو طفل فتحمله أم سلمة أم المؤمنين فيدر ثديها له فيرضع منه فهو رضيع لبان النبوة. وقد عاش الحسن ﷺ في المدينة حتى استشهد سيدنا عثمان ﷺ وذلك في عام خمسة وثلاثين من الهجرة، فكأنه عاش في المدينة أربع عشرة سنة ثم ارتحل بعد ذلك إلى البصرة وعرف بالحسن البصري وتعلمون أنه تعود إليه كل طرق التصوف تقريبا لماذا؟،

لأنه عاصر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وأخذ عنه الكثير من العلم حتى إن سيدنا عليا عندما ذهب إلى الكوفة وهناك التقى بسهل بن حنيف واليه على الكوفة، أمره أن يخرج القَصَّاص (الحكواتي) من مسجد الكوفة، وخرج سيدنا علي ليطوف على هذه الحلق التي تذكر فيها القصص، حتى وقف عند حلقة هذا الشاب المسمى بالحسن بن يسار، فالتفت إلى سهل بن حنيف فقال: يا سهل من هذا الغلام الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء، قال ذلك الحسن بن يسار فقال أما هذا فأثبته في مكانه، ومنذ ذلك الحين أخذ الحسن من الإمام علي الكثير من العلم والمعرفة، ولأن سيدنا الحسن البصري ﷺ لم يلبس غير الصوف، سئل في ذلك فقال يا هؤلاء أقصروا، فوالله لقد شهدت سبعين بدريا (من أهل بدر)، كلهم يلبس الصوف حتى إذا نزلت السماء عليهم شممت منهم رائحة الضأن. إذن لبس الصوف ليس بالشيء الجديد. فعلام يدل لبس الصوف؟، هذا ما بحثه الباحثون فقالوا.. إن لبس الصوف دلالة على الصفاء ولهذا فمن صافى الحق صافاه ليكون بذلك صوفيا، وقيل لبس الصوف إشارة ودلالة على التزام لابسيه بالصلاة في الصف الأول لأنهم من الذين يجالسون الحق على الدوام بحيث لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وقالوا بل إن الصوف يدل على أن أهله من صفوة الله الذين آثروا ما عند الله على ما في هذه الدنيا فقلبوا لها ظهر المجن وعاملوها معاملة قاسية، لأنها دار فناء، ولدار البقاء عملوا. ولهذا نستطيع أن نقول إن التصوف منهجا للزهد والنسك والذكر والصفاء ومنهجا ليكون الإنسان من صفوة الله ومنهجا ليكون من أهل الصف الأول، فالتصوف بهذه المرتكزات قديم قدم الإسلام، معروف ما عرف الإسلام، لأن الإسلام قد جاء عبر القرآن الكريم والسنة النبوية بهذه المفاهيم، ولهذا لم يتكلم علماء التصوف كثيرا عن الهيئة بقدر ما تحدثوا عن أركان التصوف، وهو مقسم عندهم إلى أربعة أركان إذا قام على دعائمها قام البناء شامخا، وإذا انهارت هذه الدعائم انهار البناء تبعا لانهيار دعائمه، ولهذا كان الركن الأول لمنهج المتصوفة هو السهر فلن تجد صوفيا إلا

وله نصيب من الليل، لأن الليل موضع الخلوة الزمانية بين الأحبة وحبيبهم، وهو من أدعى الأوقات للإجابة والقبول، وهو الصلة التي تربط الإنسان بفيوضات عطاء ربه، ولهذا جعله الله تبارك وتعالى ظرفا زمانيا مليئا بالأسرار واللطائف، وأمر عباده الصالحين أن يقوموا من الليل ساهرين، ولهذا نجد في كثير من آيات القرآن الكريم الدعوة إلى السهر والدعوة إلى قيام الليل ذلك لأن لليل أهلاً لهم، فيه راحة وسكن، وقد أدب الله رسوله ورباه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل:1-4]، لماذا؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل 5-6]. هذه الناشئة من الليل التي هي أشد وطئاً، هي التي عرفها أهل التصوف وهي التي دعوا الناس إليها ليكونوا من أولئك الذين قال فيهم الله عز وجل ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾ [الفرقان 63 ، 64]، فهؤلاء الذين يبيتون لربهم، أي يقفون ليلهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، ذلك لأن قيام الليل بالعبادة من سيماء الصالحين ومن علامات عباد الله المقربين، من هذا كان السهر ركنا ركينا وأصلا ثابتا من أصول التربية الإسلامية التي جاءت عبر القرآن الكريم باعتباره النهج الإلهي القويم. أما الركن الثاني في منهج المتصوفة هو الجوع ، الذي إذا تأملناه، نجد أن القرآن الكريم عبر عنه بالصيام، والصوم هو إمساك النفس عن شهواتها المعتادة كشهوتي البطن والفرج، فمن جاع اتصل بالله عبر حبل متين، ذلك لأن الجائع يكون قريبا من ربه فتزكو نفسه وتسمو روحه ويستيقن قلبه الإيمان، ليكون بذلك من المقربين فالجوع وارد، ولو ذهبنا نعدد الحوادث والأحاديث التي تتحدث عن الجوع لطال بنا المقام ولهذا نشير إشارة عابرة إلى أن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم كان أسوة في الجوع، وكان أسوة في الصيام، فانظروا إليه في غزوة الخندق يعصب بطنه بالحجر،

ويأتي إليه محمد بن مسلمة وقيل حذيفة بن اليمان يقول له إن عقبة كؤوداً حالت بين المسلمين وبين حفر الخندق، فجاء رسول الله ﷺ وهو جائع لم يذق طعاما منذ أمد وقد عصب حجرا على بطنه يتقوى به، فحمل المعول وضرب الصخرة ضربة فبرقت برقا شديدا، فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، ثم ضربها ثانية فبرقت فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الروم، ثم ضربها ثالثة فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الجزيرة العربية ثم انهالت الصخرة وانقضت، وهذا الربط بين الحالة التي كان عليها الرسول ﷺ وبين هذا الفتح المبين، وبين هذه البشرى التي ذكرها الرسول ﷺ يبشر بها هؤلاء الصحابة الأجلاء، يلفت النظر إلى أن من جاع يكون متصلا بالله أي في حالة كونه ذاكرا له يفتح له ويبشر ببشارات تأتي في مستقبل أيامه، وقد صدق رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم فيما بشر به، وبهذا نجد أن الجوع ديدن الصالحين ونجائب المقربين، منذ عهد الرسول صلي الله عليه وآله وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. أما الركن الثالث فهو العزلة :التي يعبر عنها الشارع بالاعتكاف، وهي السنة التي كاد الناس أن ينسوها، ولها أصل أصيل وركن ركين بدءا من تربية المصطفى قبل مبعثه صلي الله عليه وآله وسلم ليكون رسولا وليعد لمقام الرسالة، أعده الله لهذا المقام الرفيع بالعزلة، حتى إن قريشا كانت تقول إن محمدا قد عشق ربه، فكان يذهب ليختلي في غار حراء الشهر والشهرين والثلاثة ثم يعود إلى أهله فيتزود لمثلها، حتى إذا فاجأه الوحي وجده في خلوته معتزلا بغار حراء، ولهذا فإن الخلوة استجماع للفؤاد لمجالسة رب العالمين ولذلك فإن أبا يزيد البسطامي العالم المرشد الجليل كان يقول (من علامات صدق المريد في طلبه الحق فراره من الخلق، ومن علامات صدق فراره من الخلق وجوده للحق، ثم رجوعه مرة أخرى ليرشدهم إلى الله)، وهذه هي نفس الطريقة التي سار عليها الرسول صلي الله عليه وآله وسلم، فقد اعتزل الخلق فوجد الحق فعاد بالحق رسولا يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام،

ولهذا نجد أن هذا المنهج يدل عليه القرآن، وما كان عليه الرسول صلي الله عليه وآله وسلم، ولا يزعم أحد أن التربية التي كان عليها رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم تتعارض مع الإسلام، وإلا لكان هذا طعن في الوسيلة التي أعد بها الله رسوله صلي الله عليه وآله وسلم، ثم إن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم يحتفظ بهذا الركن عبر هذا الاعتكاف، وهل الاعتكاف إلا الخلوة، التي قد تستمر أربعين يوما أو تسعين يوما حسب حالة الإنسان المعتكف وحسب علاقته بأهل الدنيا، وإن كان متفرغا جاز له أن يمكث ما شاء من الزمن، كأهل الصفة فإنهم كانوا متفرغين لا عمل لهم، فهم يذكرون الله تعالى بالغداة والعشي كما وصفهم جل شأنه، والرسول صلي الله عليه وآله وسلم كان يحبهم ويجالسهم، ولهذا عندما جاء صناديد قريش وكبراؤهم ليناقشوا رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم عام الوفود سنة ثمان من الهجرة، قالوا لرسول الله ﷺ نحن نريد أن نسلم ولكن بشرط هو أن تجعل لنا مجلسا بعيدا عن هؤلاء العبيد والضعفاء، حتى تعرف العرب به فعلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء فإذا نحن جئنا فأقمهم عنا وإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت فقال لهم الرسول ﷺ: نعم.. فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف:28-29]. فالمعنيون بالآية الأولى هم أهل الصفة والمعنيون بالآية الثانية هم صناديد وكبراء قريش فانظروا واعتبروا يا أولي الألباب لتكريم الله لأوليائه وإهانته وزجره لأعدائه. أما الركن الرابع الصمت فهو حكمة، وقليل فاعله وإذا تتبعتم الأحاديث النبوية الشريفة وجدتموها كثيرا ما تحث على الصمت وهذه أمثلة منها

فقد قال الرسول صلي الله عليه وآله وسلم: «**من كان يؤمن بالله فليقل خيرا أو ليصمت**» أورده البخاري في صحيحه من حديث رواه عن الصحابي أبو شريح العدوي الخزاعي الكعبي، وقال عليه الصلاة والسلام: «**من يتكفل لي ما بين لحييه وفخذيه ضمنت له الجنة**» رواه الترمذي في صحيحه عن الصحابي سهل بن سعد الساعدي، وقال صلي الله عليه وأله وسلم في الحديث الطويل: «**وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**» رواه الترمذي في سننه عن الصحابي معاذ بن جبل، وسئل الرسول صلي الله عليه وآله وسلم عن أكثر ما يدخل النار فقال: «**الأجوفان الفم والفرج**». رواه ابن حبان في صحيحه عن الصحابي طلق بن علي. وقال عليه وآله الصلاة والسلام، (**من صمت نجا**) رواه المنذري في الترهيب والترغيب عن عبد الله بن عمر، وقال صلي الله عليه وآله وسلم: «**من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به**» رواه الذهبي في ميزان الإعتدال عن عبد الله بن عمر، ويكفيك قول الله تعالى في محكم آياته: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:114]، ومعناها ألا تتكلم فيما لا يعنيك وأن تقتصر على ما يهمك وقد جمعت أركان التصوف في قول بعضهم:

بيت الولاية قسمت أركانه　　　سادتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم　　　والجوع والسهر النزيه الغالي

وإذا علمنا أن هذه الأركان تثبت بالكتاب والسنة وكل أهل الطرق متمسكون بها، ولكنهم نجدهم قد اختلفوا في مناحي التربية ومنهج السلوك. وهنا نشأ التقول عليهم من أعدائهم محتجين بالآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام:153]، يقولون وهم يستندون إلى هذه الآية إن هذه السبل هي الطرق الكثيرة (قادرية، رفاعية، سمّانية، عروسية عيساوية إدريسية عزمية..... إلخ)

وكأن الله لم ينزل آية تعدد سبل الخير فقد قال الله تعالى أيضا ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:69]، والجهاد جهادان، جهاد في سبيل الله، وجهاد في سبيل الحق، والله سبحانه وتعالى قد ربط بين هداية الإنسان المسلم إلى السبل الخيرة بالجهاد فيه، فالجهاد فيه أرفع من الجهاد في سبيله، وإذا كان المجاهدون في سبيله أحياء عند ربهم يرزقون فالمجاهدون فيه أرقى حياة منهم. فقد قال الرسول صلي الله عليه وآله وسلم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس في الله». رواه ابن رجب في نور الاقتباس عن جابر بن عبد الله، ومعناه التحلي بالفضائل عن الرذائل، وهو مقام الصدّيقية التي هي دون النبوة وفوق الشهادة، والمشار إليها بقوله تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:69]، ومن هذه الآية نعلم أن من قتل في الجهاد في سبيل الله كان صديقا لأنه أمات النفس الأمارة في ذات الله، ومن أمات النفس الأمارة بالسوء فيه، أحيا النفس الراضية المرضية فيه، وهي التي تعرج بصاحبها إلى عالم الملكوت فيتلقى من عالم الملكوت نورا من نور الله يستقر في قلبه ويضيء طريق الحق والهداية فيكون عمله كله لله. وهذه النفس الراضية المرضية التي أحيتها طاعة الله ورسوله يشير إليها الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيل آياته بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[الأنفال:24]، وسيدنا أبو بكر كان أول المستجيبين لهذا النداء الرباني فنجده عندما أتى بماله للرسول صلي الله عليه وآله وسلم وقال له الرسول صلي الله عليه وآله وسلم «**ماذا تركت لأهلك؟**».. قال «**تركت لهم الله ورسوله**» وعندما أتى عمر بماله وكان يريد أن يباري ويسامي أبا بكر قال له الرسول صلي الله عليه وآله وسلم «**ماذا تركت لأهلك يا عمر؟**» قال «**نصف مالي**».. قال «الفرق بينكما كالفرق بين قوليكما يا عمر يا ابن الخطاب لم يفضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه».

كما روى أبو داود في سننه عن عمر بن الخطاب (أمَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ يومًا أن نتصدقَ فوافق ذلك مالًا عندي فقلتُ اليومَ أسبقُ أبا بكرٍ إن سبقتُه يومًا فجئتُ بنصفِ مالي فقال رسولُ الله ﷺ ما أبقيتَ لأهلك قلتُ مثلَه قال وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكلِّ ما عندَه فقال له رسولُ الله ﷺ ما أبقيتَ لأهلِكِ قال أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه قلتُ لا أسابِقُكَ إلى شيءٍ أبدًا)، فالذي أمات نفسه في الله هو الذي أهدي إلى سبيل الحق والرشاد. ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:69]، فاللام هنا لام تأكيد، والنون جاءت أيضا للتأكيد، أي تؤكد أن من جاهد في الله هداه إلى أحد هذه السبل وطرق الرشاد المختلفة، فتعدد هذه المدارس التربوية عند المتصوفة واختلاف أسمائها، يشبه تماما مناحي التفكير عند علماء المسلمين في مجالات العقيدة والفقه، فنجد العقيدة الأشعرية نسبة لأبي الحسن الأشعري، والعقيدة الماتريدية نسبة للماتريدي، والعقيدة الواسطية نسبة لواسط، وهو المكان الذي ألف فيه ابن تيمية هذه العقيدة، وأما في مجال الفقه فنجد هناك ثمانية وعشرين مذهبا والذي عليه الناس اليوم ثمانية مذاهب، فهذا كله يدل على أن هناك تعدداً في مناحي التفكير عند العلماء، وكلهم نجدهم متفقين على أن القرآن والسنة مصادر للتشريع لكن كل واحد من هؤلاء الأئمة يفهم من هذين المصدرين ما يتخذه طريقا للاستنباط والتفسير، وإذا كان هذا واقع في تاريخ العلوم الإسلامية فلا غرابة أن تنسب مناحي التفكير في التربية إلى واضعيها الذين عرفوا بها.

بعد هذا البيان نجد كثيرا من خصوم هذا المنهج الرباني يدّعون أنه لا يتصوف إلا من كان جاهلا، فالصوفية عندهم هي منهج العوام، ولكن العلماء مدعوون قبل غيرهم إلى التزام المنهج الصوفي، ومدعوون ليس بكلام شيخ وإنما بكلام الله عز وجل الذي يقول في كتابه العزيز: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران:79]، وهذه (الربانية) ليست الفقه وحده ولا العقيدة وحدها، وإنما الرباني هو الذي جمع بين العلم والعمل، لذلك لا يمكن أن يكون الواحد ربانيا إلا إذا كان على جانب من العلم والعمل، فالعالم بدون عمل لا يصير ربانيا فلا بد أن يجمع بينهما. «بما كنتم تعلمون»، فهذه دعوة إلى العلماء قبل الدارسين، والدارسون مدعوون من بعد العلماء، فخيار الناس إما عالم أو متعلم، والربانية هذه التي أمر الله بها المسلمين معناها أن يكون المؤمن على علاقة قوية بالله، بحيث يتخذ منهجا في التربية ساميا، ولن يجد أقوم من منهج المتصوفة المستمد من القرآن والسنة، ومن مقومات الربانية أن يكون المؤمن ملتزما بتلك القواعد الأربع (السهر، والجوع، والعزلة، والصمت.(فلن تكون ربانيا بغيرها قط،.. لماذا؟: لأن هذه القواعد الأربعة تفضي بك إلى التخلق بأخلاق الله والرسول ﷺ ، إذا أين نجد أخلاق الله هذه كي نتخلق بها؟، الإجابة تجدونها في القرآن الكريم، فإن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم كان خلقه القرآن، وخلق الرسول من أخلاق الله، لأجل هذا من عايش القرآن وكان نسخة حية له كان حجة لغيره ممن يدعوهم إلى الله، إذا علمنا هذا كله فينبغي أن نعلم إلى جانبه أن هذه الدعوة إلى الربانية لها نتائج، ومن النتائج الأولى أن الإنسان إذا ذكر الله كثيرا جالسه لأن الله سبحانه وتعالى يقول «أنا جليس من ذكرني». أخرجه السمهودي في الغماز على اللماز، ومن جالس الحق أنس به ومن أنس به عرفه، لأن الأنس علامة معرفة، وإذا عرفه قربه وإذا قربه ناجاه وإذا ناجاه أكرمه وإذا أكرمه تخلق بأخلاقه وإذا تخلق بأخلاقه تعالى حققه بما ينبغي أن يتحقق به من حقيقة الإيمان وأنوار الفرقان ليتغذى بجمال من جميل.

لهذا فيا أحباب الله ويا أحباب رسول الله، لا تلتفتوا لكلام هؤلاء الذين عميت أبصارهم وبصائرهم وكلهم لا يخلو أحدهم من حسد أو جهل، أما عمى أبصارهم فلأنهم لم يروا ما ترونه أنتم من هؤلاء المشائخ، فقد سئل الرسول صلي الله عليه وآله وسلم عن علامة الأولياء فقال لهم: «**الذين إذا رؤوا ذُكِرَ اللهُ**» أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، وأنتم تستشعرون ذلك، وربما وقع البعض منكم مغشيا عليه عند رؤية الشيخ، وهذا لم يذكر الله فحسب بل إنه رأى جلال الله وعظمته عند رؤية الشيخ، وأما عمى بصائرهم فلأنهم لا يتذوقون ولا يتأثرون بكلام هؤلاء العارفين كما تتذوقونه أنتم، وربما خرّ البعض منكم مغشيا عليه متأثرا بكلامهم لأنهم يلمسون الرشد والحقائق بعبارات بليغة مؤثرة في كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ولقد قال بعضهم مسليا إياكم:

علم التصوف علم ليس يدركه   إلا أخو فطنة بالحق معروف

وكيف يعرفه من ليس يشهده   وكيف يشهد ضوء الشمس

وقال الإمام البصيري في هذا المعنى:

قد تنكر العين ضوء الشمس من   وينكر الفم طعم الماء من سقم

مشروعية زيارة أضرحة الأولياء والتبرك بها

من تقولات أدعياء المعرفة، وصفهم لأهل التصوف بالقبوريين، وينكرون عليهم زيارة أضرحة الأولياء ورفع القباب عليها، ويبدِّعون كذلك هذا الفعل وهم لا يعلمون أن زيارة أضرحة الأولياء والتبرك بها كان منهج أهل الصلاح من أئمة قرون الخيرية الثلاث الأولى. وحتى لا يقع العوام في حبائل هذه الدعاوى الجاهلة نبين مايلي:

كل مسلم مدرك لأهمية الدعاء الذي وصفه رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بأنه (هو العبادة) (وهو مخ العبادة)، يتحرى الأماكن المباركة التي يستجاب فيها الدعاء، ويعلم أن هناك أماكن اختصها الله بأن يكون عندها الدعاء مستجابا، مثل عرفات، والبيت الحرام، وبيت المقدس، والمساجد، وغيرها.

ولنا أن نسأل عن السبب الذي جعل هذه الأماكن مباركة، فلكل مكان مبارك علّة، ولن يغيب عن نباهة المتأمل أن نزول البركة على عرفات كانت بسبب نزول ما افتدى به الذبيح سيدنا إسماعيل عليه السلام، والكعبة المشرفة ذكر العديد من الرواة أن نبي الله إسماعيل عليه وعلي نبينا الصلاة والتسليم وأمه السيدة هاجر رضي الله عنها وأرضاها مدفونان في الحطيم الذي يعرف بحجر إسماعيل ويضم جزءا من الكعبة المشرفة، وذكر القرطبي في تفسيره أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: مابين الركن والمقام إلي زمزم قبور تسعة وتسعين نبيا جاءوا حجاجا فقبروا هناك، وذكر الطبري عن النبي صلي الله عليه وآله وسلم أنه قال: كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة، فيعبد الله تعالي ومن معه حتى يموت فمات فيها نوح، وهود، وصالح، وشعيب عليهم السلام وقبورهم بين زمزم والحجر.

ويقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة: 125 : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ ، والمصلى اسم مكان من الصلاة بمعنى الدعاء أي اتخذوا من مقامه (عليه السلام) مكانا للدعاء، والظاهر أن قوله: جعلنا البيت مثابة الخ، بمنزلة التوطئة، أشير به إلى مناط تشريع الصلاة ولذا لم يقل: وصلوا في مقام إبراهيم، بل قال: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فلم يعلق الأمر بالصلاة في المقام، بل علق على اتخاذ المصلى منه، وفي آل عمران الآية 97 قال جل من قائل: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾، والصحيح من الآيتين أن الآيات الإلهية التي كانت سببا في بركته وهدايته للعالمين (البيت)، منها أنه مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأنه يوفر الأمن للناس، وأنه مقصدا للحج، وأنه احتوى على أجساد الصالحين من أنبياء وأولياء لا يعرف عددهم إلا الله، **روى الأزرقي وهو أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي الغساني المكي من علماء قرون الخيرية (توفي عام 245 هجرية)، في كتابه المهم (تاريخ مكة وما جاء فيها من الآثار)، فقال (حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ أَبِي الْمَهْدِيِّ ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمٍ ، عَنْ أَبِي خَيْثَمٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَابِطٍ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ ضَمْرَةَ السَّلُولِيَّ ، يَقُولُ : مَا بَيْنَ الرُّكْنِ إِلَى الْمَقَامِ إِلَى زَمْزَمَ إِلَى الْحِجْرِ قَبْورُ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ نَبِيًّا ، جَاءُوا حُجَّاجًا فَقُبِرُوا هُنَالِكَ ، فَتِلْكَ قُبُورُهُمْ غَوْرُ الْكَعْبَةِ).**

وروى محمد بن سابط عن النبي ﷺ أنه قال : كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق مكة فتعبد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا فمات بها نوح وهود وصالح وقبورهم بين زمزم والحجر.

وجاء في شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (1/ 289):ومن فضائل الحجر:أن فيه قبر إسماعيل عليه السلام، روينا عن ابن إسحاق في سيرته تهذيب ابن هشام، وروايته عن زياد البكائي عن ابن إسحاق قال: وكان عمر إسماعيل عليه السلام فيما يذكرون مائة سنة وثلاثين سنة، ثم مات رحمة الله وبركاته عليه فدفن في الحجر مع أمه هاجر، رحمهما الله ... انتهى.وقال الأزرقي: حدثني جدي، قال: حدثنا سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، قال: أخبرني ابن إسحاق: فذكر شيئا من خبر إسماعيل عليه السلام وذكر أولاده، ثم قال: **وكان من حديث جرهم وبني إسماعيل، أن إسماعيل لما توفي دفن في الحجر مع أمه)،** وذكر صاحب «الاكتفاء» أن قبر إسماعيل عليه السلام في الحجر، وأن قبره مما يلي باب الكعبة.وقد اختلف في قبر إسماعيل عليه السلام فقيل: إنه في الحجر، وهو قول ابن إسحاق،وقيل إنه في الحطيم، وقد سبق نقل الأزرقي له عن مقاتل في أخبار الحطيم، ونقله الفاكهي عن كعب الأحبار، وعن ابن سابط.وقال الفاكهي في «فضائل مكة»: حدثنا موسى بن محمد قال: حدثنا يزيد بن أبي حكيم، عن سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن ابن سابط أنه قال: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا، وإن قبر هود، وشعيب، وصالح، وإسماعيل عليهم السلام في تلك البقعة.

وممن جاء عنه أيضا القول بوجود قبر إسماعيل في الحجر:

ابن عباس : أخرجه الفاكهي (2/ 118) : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زُنْبُورٍ قَالَ: ثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ قَالَ: ثنا الْكَلْبِيُّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قَبْرَانِ، لَيْسَ فِيهِ غَيْرُهُمَا، قَبْرُ إِسْمَاعِيلَ وَشُعَيْبٌ، فَقَبْرُ إِسْمَاعِيلَ فِي الْحِجْرِ مُقَابِلَ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ. وعن عبد الله بن الربير: رواها ابن بكير في زوائده على ابن إسحاق (ص: 106): عن المنذر بن ثعلبة عن سعيد بن حرب قال: شهدت عبد الله بن الزبير وهو يقلع القواعد التي أسس إبراهيم ﷺ لبناء البيت فأتوا على تربة صفراء عند الحطيم، فقال ابن الزبير: هذا قبر إسماعيل عليه السلام فواراه.وأخرجه الأزرقي (1/ 312) : حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ قَالَ: حَدَّثَنِي جَدِّي، عَنْ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ،

قَالَ: حَدَّثَنِي الْحَارِثُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الزُّهْرِيُّ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَفْوَانَ الْجُمَحِيِّ، قَالَ: حَفَرَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْحِجْرَ فَوَجَدَ فِيهِ سَفَطًا مِنْ حِجَارَةٍ خُضْرٍ فَسَأَلَ قُرَيْشًا عَنْهُ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِيهِ عِلْمًا قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَفْوَانَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «هَذَا قَبْرُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا تُحَرِّكْهُ» قَالَ: فَتَرَكَهُ، وأخرجه أيضا (1/ 214): حَدَّثَنِي مَهْدِيُّ بْنُ أَبِي الْمَهْدِيِّ، عَنْ عِيسَى بْنِ يُونُسَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ هُرْمُزَ، قَالَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ، مَوْلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «شَهِدْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ احْتَفَرَ فِي الْحِجْرِ، فَأَصَابَ أَسَاسَ الْبَيْتِ حِجَارَةً حُمْرٌ كَأَنَّهَا الْخَلَايِقُ، تُحَرِّكُ الْحَجَرَ فَيَهْتَزُّ لَهُ الْبَيْتُ، فَأَصَابَ فِي الْحِجْرِ مِنَ الْبَيْتِ سِتَّةَ أَذْرُعٍ وَشِبْرًا، وَأَصَابَ فِيهِ مَوْضِعَ قَبْرٍ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: هَذَا قَبْرُ إِسْمَاعِيلَ. فَجَمَعَ قُرَيْشًا، ثُمَّ قَالَ لَهُمُ اشْهَدُوا، ثُمَّ بَنَى. وقد جاء عن ابن الزبير أيضا ما يقارب السابق: رواه عبد الرزاق(5/ 120) والأزرقي (2/ 66)، كلهم بطرق عن سفيان بن عيينة، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ يَقُول: إِنَّ هَذَا الْمُحْدَوْدِبَ قَبْرُ عَذَارَى بَنَاتِ إِسْمَاعِيلَ، وَهُوَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ، مُقَابِلَ بَابِ بَنِي سَهْمٍ نَحْوَ الرُّكْنِ «وسنده صحيح»، ورواه ابن معين في تاريخه – رواية الدوري (3/ 99)، والفاكهي (2/ 117) من طريق سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن بن الرهين سمع بن الزبير....:قال الدوري : [قلت ليحيى مَا اسْم بن الرهين قَالَ النَّضر بن الرهين قلت لَهُ سمع بن عُيَيْنَة مِنْهُ قَالَ نعم] أ.هـ، قال الفاكهي (2/ 117) بعد الأثر: [قَالَ ابْنُ أَبِي عُمَرَ فِي حَدِيثِهِ: فَسُئِلَ سُفْيَانُ: أَيُّ مَكَانٍ هُوَ؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْحِجْرِ مُسْتَقْبِلَ الرُّكْنِ الْغَرْبِيِّ الَّذِي يَلِي الرُّكْنَ الْيَمَانِيَّ مُقَابِلَ دَارِ الْعَجَلَةِ (واختلف في اسم ابن الرَّهين هذا)، انظر التاريخ الكبير للبخاري (5/ 92)، والمؤتلف والمختلف للدارقطني (4/ 2243)، وإكمال الإكمال لابن نقطة (3/ 43)، والإكمال في رفع الارتياب (3/ 389). ورواه صالح بن الإمام أحمد في ((مسائله)) ، (ص 42) قال:حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان عن عبد الرحمن ابن سابط عن عبد الله بن ضمرة السلولي قال:ما بين المقام إلى الركن إلى زمزم إلى الحجر قبر تسعة وتسعين نبياً جاؤوا حاجين فقبروا هناك. قال صالح: (قال أبي: لم أسمع من يحيى بن سليم غير هذا الحديث).

وجاء في كتب المفسرين ما يرجح ذلك، فقد قال القرطبي في تفسيره:الجزء 2: قال ابن إسحاق: وبلغني أن آدم عليه السلام كان يستلم الأركان كلها قبل إبراهيم عليه السلام.وقال: حج إسحاق وسارة من الشام، وكان إبراهيم عليه السلام يحجه كل سنة على البراق، وحجته بعد ذلك الأنبياء والأمم.وروى محمد بن سابط عن النبي ﷺ أنه قال: (كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق مكة فتعبد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا فمات بها نوح وهود وصالح وقبورهم بين زمزم والحجر). وذكر ابن وهب أن شعيبا مات بمكة هو ومن معه من المؤمنين، فقبورهم في غربي مكة بين دار الندوة وبين بني سهم.وقال ابن عباس: في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما، قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام، فقبر إسماعيل في الحجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود. وقال عبد الله بن ضمرة السلولي : ما بين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيا جاءوا حجاجا فقبروا هنالك ، صلوات الله عليهم أجمعين.

وجاء في تفسير الألوسي- الجزء 6 الباب 93: ثم إن شعيباً عليه السلام بعد هلاك من أرسل إليهم نزل مع المؤمنين به بمكة حتى ماتوا هناك وقبورهم على ما روى عن وهب بن منبه في غربي الكعبة بين دار الندوة وباب سهم. وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام أما قبر إسماعيل ففي الحجر وأما قبر شعيب فمقابل الحجر الأسود. وجاء في الدر المنثور الجزء1 الباب127: أخرج الجندي من طريق عطاء بن السائب عن محمد بن سابط عن النبي ﷺ قال (كان النبي من الأنبياء إذ هلكت أمته لحق بمكة فيتعبد فيها النبي ومن معه حتى يموت ، فمات بها نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام ، وقبورهم بين زمزم والحجر). وأخرج الأزرقي والجندي من طريق عطاء بن السائب عن محمد بن سابط قال : قال رسول الله ﷺ: (مكة لا يسكنها سافك دم ولا تاجر بربا ولا مشاء بنميمة . قال : ودحيت الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت وهي أول من طاف به ، وهي الأرض من مكة وكانت الملائكة تطوف بالبيت وهي أول من طاف به ، وهي الأرض التي قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة : 30]

وكان النبي من الأنبياء إذا هلك قومه فنجا هو والصالحون معه أتاها بمن معه فيعبدون الله حتى يموتوا فيها ، وإن قبر نوح وهود وشعيب وصالح بين زمزم والركن والمقام). وذكر الذهبى فى سير أعلام النبلاء (1/ 145) في (سيرة ابن هشام) (1/ 111) : قال ابن اسحاق: وكان عمر اسماعيل فيما يذكرون مائة سنة وثلاثين سنة ثم مات رحمة الله وبركاته عليه ودفن في الحجر مع أمه هاجر رحمهم الله تعالى، وذكر نحو ذلك ابن سعد في (طبقاته) (1/ 52)، والذهبي في (تاريخ الإسلام) (1/ 20)، وابن خلدون في (تاريخه) (2/ 44).وفي (أخبار مكة) للأزرقي (1/ 81):« وكان من حديث جرهم وبني إسماعيل أن إسماعيل لما توفي دفن مع أمه في الحجر وزعموا أن فيه دفنت حين ماتت. أخرج ابن سعد في (الطبقات) (1/ 52) ومن طريقه ابن الجوزي في (المنتظم) (1/ 306) عن أبي الجهم بن حذيفة الصحابي قال :« أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت وهو يومئذ ابن مائة سنة وإسماعيل يومئذ ابن ثلاثين سنة فبناه معه وتوفي إسماعيل بعد أبيه فدفن داخل الحجر مما يلي الكعبة مع أمه هاجر.وأخرج ابن سعد (1/ 52) ومن طريقه ابن الجوزي في (المنتظم (1/ 306) ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة قال: ما يعلم موضع قبر نبي من الأنبياء إلا ثلاثة : قبر إسماعيل فإنه تحت الميزاب بين الركن والبيت، وقبر هود فإنه في حقف من الرمل تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة تندى وموضعه أشد الأرض حرا، وقبر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).ودفن نبي الله إسماعيل بالحجر مع أمه هاجر، وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة. وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة، فأوحى الله إليه: إني أفتح لك باباً من الجنة إلى الموضع الذي تدفن فيه. يجرى عليك روحها إلي يوم القيامة. وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه : نابت ، وقيذار.

وفي كتاب قصص الأنبياء لابن كثير وكتاب البداية والنهاية باب ذكر إسماعيل عليه السلام: عبد الرزاق عن ابن جريج قال : أخبرني عبد الله بن عثمان عن ابن سابط عن عبد الله بن ضمرة السلولي قال: طفت معه حتى إذا كنا بين الركن والمقام ، فذكر كذا وكذا ، حتى ذكر قبر إسماعيل هنالك – أحسبه – ذكر نحو تسعين نبيا ، أو سبعين، باب ذكر من قبر بين الركن والمقام –مصنف عبد الرزاققَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، وَبَلَغَنِي عَنْ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ: « قَبْرُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا بَيْنَ زَمْزَمَ وَالرُّكْنِ وَالْمَقَام.وجاء في أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه –الفاكهي– حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زُنْبُورٍ قَالَ: ثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ قَالَ: ثنا الْكَلْبِيُّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: « فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَام قَبْرَانِ، لَيْسَ فِيهِ غَيْرُهُمَا، قَبْرُ إِسْمَاعِيلَ وَشُعَيْبٌ، فَقَبْرُ إِسْمَاعِيلَ فِي الْحِجْرِ مُقَابِلَ الرُّكْنِ الْأَسْوَد. وفي باب ذكر موضع قبور عذاري بنات إسماعيل علية السلام«أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه» للفاكهي، قال خالد المخزومي: فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى باب الحجر الغربي فيه قبره. وقال صفوان بن عبد اللّه الجمحي: حفر ابن الزبير الحجر فوجد فيه سفطاً من حجارة أخضر، فسأل قريشاً عنه فلم يجد عند أحد منهم فيه علماً، فأرسل إلى أبي فسأله فقال: هذا قبر إسماعيل عليه السلام.وفي رواية: أنه وجد حجارة خضراء منطبقاً بها، فقيل له: هذا قبر إسماعيل. وقيل: بل قبره مقابل الحجر الأسود. وقال ابن الزبير: هذا المحدود يشير إلى ما يلي الركن الشامي من المسجد الحرام، فقبور عذارى بنات إسماعيل. قال: وذلك الموضع سوي مع المسجد ولا يثبت أن يعود محدودباً كما كان.قال علماء السير: لما توفي إسماعيل دبرأمر الحرم بعده ابنه نابت بن إسماعيل. وفي باب ذكر اسماعيل صلوات الله عليه وسلامه – المنتظم لابن الجوزي قال ابن سعد: وأخبرنا خالد بن خداش، حدثنا عبد الله بن وهب المعبري،

قال: حدثني حرملة بن عمران، عن إسحاق بن عبد اللّه بن أبي فروة، أنه قال: ما يعلم موضع قبر نبي من الأنبياء إلا ثلاثة: قبر إسماعيل، فإنه تحت الميزاب بين الركن والبيت وقبر هود فإنه في خصف تحت جبال اليمن عليه شجرة نداء وموضعه أشد الأرض حرّاً،، وقبر رسول اللّه ﷺ. وفي باب ذكر إسماعيل صلوات الله عليه وسلامه- المنتظم لابن الجوزي قال: أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي، حدثني أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما بلغ إسماعيل عشرين سنة توفيت أمه هاجر وهي ابنة تسعين سنة فدفنها إسماعيل في الحجر.قال: وأخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي جهم عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة عن أبي جهم بن حذيفة بن غانم قال: أوحى الله إلى إبراهيم، ﷺ، أن يبني البيت، وهو يومئذ ابن مائة سنة، وإسماعيل يومئذ ابن ثلاثين سنة، فبناه معه، وتوفي إسماعيل بعد أبيه فدفن داخل الحجر مما يلي الكعبة مع أمه هاجر، وولي نابت بن إسماعيل البيت بعد أبيه مع أخواله جرهم.قال: أخبرنا خالد بن خداش ابن عجلان، أخبرنا عبد الله بن وهب المصري، أخبرنا حرملة بن عمران عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة أنه قال: ما يعلم موضع قبر نبي من الأنبياء إلا ثلاثة: قبر إسماعيل، فإنه تحت الميزاب بين الركن والبيت، وقبر هود، فإنه في حقفٍ من الرمل تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة تندى، وموضعه أشد الأرض حراً وقبر رسول الله، ﷺ، فإن هذه قبورهم بحق. وفي طبقات ابن سعد باب ذكر إسماعيل علية السلام ذكر خبر ولد إسماعيل بن إبراهيم (قد ذكرنا فيما مضى سبب إسكان إسماعيل الحرم وتزوّجه امرأة من جرهم وفراقه إيّاها بأمر إبراهيم ثمّ تزوّج أخرى، وهي السيدة بنت مضاض الجرهمي،

وهي التي قال لها: قولي لزوجك: قد رضيت لك عتبة بابك، فولدت لإسماعيل اثني عشر رجلاً: نابت وقيدار واذيل وميشا ومسمع ورما وماش وآذر وقطورا وقافس وطميا وقيدمان، وكان عمر إسماعيل فيما يزعمون سبعاً وثلاثين ومائة سنة، ومن نابت وقيدار ابني إسماعيل نشر الله العرب، وأرسله الله تعالى إلى العماليق وقبائل اليمن، وقد ينطق أولاد إسماعيل بغير الألفاظ التي ذكرت، ولما حضرت إسماعيل الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق، وزوج ابنته من العيص بن إسحاق، ودفن عند قبر أمّه هاجر بالحجر). وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير (نا أحمد: نا يونس عن المنذر ابن ثعلبة عن سعيد بن حرب قال: شهدت عبد الله بن الزبير وهو يقلع القواعد التي أسس إبراهيم ﷺ لبناء البيت فأتوا تربة صفراء عند الحطيم، فقال ابن الزبير: هذا قبر إسماعيل عليه السلام فواراه). وفي السيرة النبوية لابن إسحاق -باب حديث بنيان الكعبة قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَكَانَ عُمْرُ إسْمَاعِيلَ – فِيمَا يَذْكُرُونَ مِئَةَ سَنَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ثُمّ مَاتَ رَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ وَدُفِنَ فِي الْحِجْرِ مَعَ أُمّهِ هَاجَرَ ، رَحِمَهُمْ اللّهُ تَعَالَى، وفي سيرة ابن هشام باب عمر إسماعيل علية السلام ومدفنة، وقيل : إن إسماعيل لما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق و زوج ابنته من العيص بن إسحاق، و عاش إسماعيل فيما ذكر مائة و سبعا و ثلاثين سنة ، ودفن في الحجر عند قبر أمه هاجر. وفيه، حدثني عبدة بن عبد الله الصفار ، قال : حدثنا خالد بن عبد الرحمن المخزومي ، عن مبارك بن حسان صاحب الأنماط ، عن عمر ابن عبد العزيز ، قال : شكا إسماعيل إلى ربه تبارك و تعالى حر مكة فأوحى الله تعالى إليه ، إني فاتح لك بابا من الجنة يجري عليك روحها إلى يوم القيامة ، و في ذلك المكان تدفن. وفي تاريخ الطبري ذكر خبر ولد إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ففي تاريخ الطبري:1/ 221: (وعاش إسماعيل فيما ذكر مائةً وسبعاً وثلاثين سنة ، ودفن في الحجر عند قبر أمه هاجر).وقيل: إن إسماعيل لما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق

وزوج ابنته من العيص بن إسحاق، وعاش إسماعيل فيما ذكر مائة وسبعاً وثلاثين سنة، ودفن في الحجر عند قبر أمه هاجر. في تاريخ الرسل والملوك لابن جرير - باب ابن إبراهيم، وفي تفسير القرطبي:2/ 130: (ما بين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبياً ، جاءوا حجاجاً فقبروا هنالك عليهم السلام).

ومقصد القول أن الصالحين من الأنبياء والأولياء تجلب أجسادهم بعد انتقال أرواحهم إلى الرفيق الأعلى البركة إلى مكان دفنهم، وتؤيد ذلك الآية 21 من سورة الكهف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ ، و قوله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ القائلون هم المشركون من القوم بدليل قوله بعد ذلك: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ ﴾ ، والمراد ببناء البنيان عليهم على ما قيل أن يضرب عليهم ما يجعلون به وراءه ويسترونه عن الناس فلا يطلع عليهم مطلع منهم، كما يقال: بنى عليه جدارا إذا حوطه و جعله وراءه. وهذا الشطر من الكلام بانضمامه إلى ما قبله من قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ يلوح إلى تمام القصة كأنه قيل: ولما أن جاء رسولهم إلى المدينة وقد تغيرت الأحوال وتبدلت الأوضاع بمرور ثلاثة قرون على دخولهم في الكهف، وانقضت سلطة الشرك وألقي زمام المجتمع إلى التوحيد، وهو لا يدري، لم يلبث دون أن ظهر أمره وشاع خبره فاجتمع عليه الناس ثم هجموا وازدحموا على باب الكهف فاستنبؤوهم قصتهم، وحصلت الدلالة الإلهية، تأييدا لعقيدة أهل الإسلام (ليعلموا أن وعد الله (بالبعث) حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها) ثم إن الله قبضهم إليه فلم يلبثوا أحياء بعد انبعاثهم إلا سويعات ارتفعت بها عن الناس شبهتهم في أمر البعث، وعندئذ قال المشركون ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم تحججا لطمس هذه الآية. وفي قوله: ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ إشارة إلى وقوع خلاف بين الناس المجتمعين عليهم أمرهم، فإنه كلام آيس من العلم بهم

واستكشاف حقيقة أمرهم يلوح منه أن القوم تنازعوا في شيء مما يرجع إليهم فتبصر فيه بعضهم ولم يسكن الآخرون إلى شيء ولم يرتضوا رأي مخالفيهم فقالوا: ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم. فمعنى الجملة أعني قوله: «ربهم أعلم بهم» يتفاوت بالنظر إلى الوجهين المتقدمين في قوله: «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» إذ للجملة على أي حال نوع تفرع على تنازع بينهم كما عرفت آنفا، فإن كان التنازع المدلول عليه بقوله: «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» هو التنازع في أمر البعث بالإقرار والإنكار لكون ضمير «أمرهم» للناس كان المعنى أنهم تنازعوا في أمر البعث، فأعثرناهم عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها، لكن المخالفين لم ينتهوا بما ظهرت لهم من الآية فقالوا ابنوا على أصحاب الكهف بنيانا واتركوهم على حالهم ينقطع عنهم الناس فلم يظهر لنا من أمرهم شيء ولم نظفر فيهم على يقين ربهم أعلم بهم، و قال الموحدون: أمرهم ظاهر وآيتهم بينة وبركتهم واضحة ولنتخذن عليهم مسجدا يعبد فيه الله نتبارك بهم في دعائنا، ويبقى ببقائه ذكرهم. فالمراد بالغلبة غلبة الموحدين بنجاحهم بالآية التي قامت على حقيّة البعث، واتخاذ المسجد عليهم للدعاء والتعبد بغرض التبرك، حتى يكون المكان مباركا بهم فيستجاب فيه الدعاء لله وحده الذي لا شريك له. وهذا يلهمنا بأن اتخاذ المساجد على أضرحة من تظهر لهم كرامة من عباد الله الصالحين المشهود لهم بالتزام الأوامر والنواهي الشرعية واجب، ليستفيد منه كل متوجه لله، يتحرّى الأماكن المباركة التي يستجاب فيها الدعاء، وقد ذهب إلى ذلك عدد من العلماء منهم شيخنا الشيخ الإمام محمد متولي شعراوي رحمه الله برحمته الواسعة، وشيخ الأزهر السابق المرحوم بإذن الله عبد الحليم محمود، ومفتي الديار المصرية الشيخ الدكتور علي جمعة، وشيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب، والشيخ يوسف الدفاعي وزير أوقاف الكويت السابق، والشيخ محمد المالكي الحجازي، والشيخ علي الجفري، وغيرهم الكثير من العلماء المعاصرين من جميع المذاهب والمدارس الفقهية، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا أتباع مدرسة واحدة مشهورة بمخالفة المسلمين منذ نشأتها الأولى وهم اتباع المدرسة الوهابية هداهم الله إلى سوي الصراط

. والأدلة كثيرة على عدم معارضة العلماء في صدر الإسلام خاصة القرون الثلاثة الأولى البناء على أضرحة الصالحين، فهذا ضريح الصحابي الجليل زيد بن الخطاب كان مزارا منذ العصر الراشدي، إلى أن هدمه أتباع محمد بن عبد الوهاب بداية القرن الماضي، وهذا أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام الحنفية المتوفى 150هـ. قبره في الأعظمية ببغداد مزار معروف، وروى الخطيب في تاريخه 1 ص 123 عن علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي يقول: **إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره في كل يوم زائرا فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعد حتى تقضى.** وذكره الخوارزمي في مناقب أبي حنيفة ج 2 ص 199، والكردري في مناقبه 2 ص 112، وطاش كبرى زادة في مفتاح السعادة 2 ص 82، والخالدي في صلح الأخوان ص 83 نقلا عن السفيري وابن جماعة. وقال ابن الجوزي في (المنتظم) 8 ص 245: في هذه الأيام (يعني سنة 459) بنى أبو سعد المستوفي الملقب شرف الملك مشهد أبي حنيفة وعمل لقبره ملبنا وعقد القبة وعمل المدرسة بإزائه وأنزلها الفقهاء ورتب لهم مدرسا فدخل أبو جعفر ابن البياضي إلى الزيارة فقال ارتجالا.

ألم تـر أن العلـم كـان مضـيعا فجمعـه هـذا المغيـب في اللحـد
كذلك كانـت هـذه الأرض ميتـة فأنشرها جـود العميـد أبـي سـعد

وفقيه المدينة مالك بن أنس إمام المالكية المتوفى 179، قبره ببقيـع الغرقـد في المدينـة المنورة. قال ابن جبير في رحلته 153: عليه قبة صغيرة مختصرة البنـاء. وقـال إن الفقهـاء عدوا زيارته من آداب من زار قبر النبي الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم. والإمام موسـى بن جعفرﷺ المدفون بالكاظمية سنة 183، أخـرج الخطيـب البغـدادي في تاريخـه 1 ص 120 بإسناده عن أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال [شيخ الحنابلة في عصره] يقول: مـا همنـي أمـر فقصـدت قبـر موسـى بـن جعفـر فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لي ما أحب. وفي (شذرات الذهب) 2 ص 48: تـوفي ببغـداد الشريف أبو جعفر محمد الجواد ابن علي بن موسـى الرضـا الحسـيني، ودفـن عنـد جـده موسى ومشهدهما ينتابه العامة بالزيارة. قال أبو بكر محمد ابن المؤمل: خرجنـا مـع إمـام أهل الحديث أبي بكر ابن خزيمة وعديله أبي علي الثقفي مع جماعة مـن مشـايخنا وهـم إذ ذاك متوافرون إلى علي بن موسى الرضا بطوس قال فرأيت من تعظيمـه يعنـي ابـن خزيمـة لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرعه عندها ما تحيرنا، وعبد الله بن غالب الحداني البصـري المقتول سنة 183، قتل يوم التروية، كـان النـاس يأخـذون مـن تـراب قبـره كأنـه مسـك يصيرونه في ثيابهم [ص 258 ، ص 354]. وقال محمد بـن فضـالة: رأيـت النبـي ﷺ في النوم فقال: زوروا ابن عون فإن الله يحبه (ص 39 ، ص 348). وعـلي بـن نصـر بـن عـلي الأزدي (أبو الحسـن البصـري) المتـوفى 189، مشـهده بالبصـرة معـروف يـزار. هـامش الخلاصة 235. ومعروف الكرخي المتوفى 200هـ، قال إبـراهيم الحربـي: قبـر معـروف الترياق المجرب. وعن الزهري أنه قال: قبر معروف الكرخـي مجـرب لقضـاء الحـوائج ويقال: إنه من قرأ عنده مائة مرة قل هو الله أحد وسأل الله ما يريد قضى الله حاجته. وروي عن أبي عبد الله المحاملي أنه قال: أعرف قبر معروف الكرخي منذ سبعين سـنة مـا قصـده مهموم إلا فرج الله همه. وقال ابن الجوزي في (صفة الصفوة) 2 ص 183:

عن أحمد بن الفتح قال: سألت بشرا يقصد بشر الحافي (التابعي الجليل) عن معروف الكرخي فقال: هيهات حالت بيننا وبينه الحجب. إلى أن قال : فمن كانت له إلى الله حاجة فليأت قبره وليدع فإنه يستجاب له إن شاء الله تعالى. وقال: قبره ظاهر يتبرك به في بغداد، وكان إبراهيم الحربي يقول: قبر معروف الترياق المجرب. وقال في (المنتظم) 8 ص 248. وعبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. قال الخطيب البغدادي في تاريخه 1 ص 123 : باب البردان فيها أيضا جماعة من أهل الفضل وعند المصلى المرسوم بصلاة العيد قبر كان يعرف بقبر النذور ويقال: إن المدفون فيه رجل من ولد علي بن أبي طالب ﷺ يتبرك الناس بزيارته، ويقصده ذو الحاجة منهم لقضاء حاجته. وهذا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي إمام الشافعية المتوفى 204، دفن بالقرافة الصغرى بمصر المحروسة وقبره يزار بها بالقرب من المقطم وقال الجزري في (طبقات القراء) 2 ص 97: والدعاء عند قبره مستجاب. وقال الذهبي في (دول الإسلام) 2 ص 105: إن الملك الكامل عمّر قبّة على ضريح الشافعي رحمة الله عليه. والسيدة نفيسة ابنة أبي محمد الحسن ابن زيد من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب، توفيت سنة 208 ودفنت بدرب السباع وقبرها معروف بإجابة الدعاء عنده وهو مجربﷺ. وأحمد بن حنبل إمام الحنابلة المتوفى 241، قبره ظاهر مشهور يزار ويتبرك به. كذا في مختصر طبقات الحنابلة ص 11، وقال الذهبي ضريحه يزار ببغداد. وحكى ابن الجوزي في (مناقب أحمد) ص 297 عن عبد الله ابن موسى قال: خرجت أنا وأبي في ليلة مظلمة نزور أحمد فاشتدت الظلمة فقال أبي: يا بني تعالى حتى نتوسل إلى الله تعالى بهذا العبد الصالح حتى يضيء لنا الطريق فإني منذ ثلاثين سنة ما توسلت به إلا قضيت حاجتي فدعا أبي وأمنت على دعائه فأضاءت السماء كأنها ليلة مقمرة حتى وصلنا إليه. وقال في ص 418: عن أبي الحسن التميمي عن أبيه عن جده أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل قال: فمكثت طول أسبوع رجاء أن أصل من ازدحام الناس عليه فلما كان بعد أسبوع وصلت إلى قبره. ووعدت بالجلوس في جامع المنصور فتكلمت يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى،

فبات في الجامع خلق كثير وختمت ختمات واجتمع للمجلس بكرة ما حزر بمائة ألف، ثم نزلت فمضيت إلى زيارة قبر أحمد فتبعني من حزر بخمسة آلاف]. والأدلة في هذا المجال تطول خاصة في الثلاثة قرون الأولى من صدر البعثة المحمدية على صاحبها وآله الصلاة والسلام، المعروفة بقرون الخيرية، ولم نقرأ من أنكر على الناس إقامة الأضرحة على قبور الصالحين بغرض مباركة المكان ليستجاب فيه الدعاء، فلا يدعو المسلم مع الله أحدا، ولكنه التحري عن الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء. ومن يقولون بتأويل لا يستقيم لحديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي صححه البخاري ومسلم وغيرهما، عن ابن عباس وعائشة ﵃ وغيرهما (لما نزل برسول الله ﷺ، طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: (**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذر ما صنعوا**)، ولا نعرف مسلما اتخذ أحد القبور لنبي أو ولي مسجدا، بل تقصّر في مقصورة مستقلة بذاتها معزولة عن المسجد، ولا نعرف مسلما يصلي على قبر، ولا يقول بهذا أحد من السلف أو الخلف، وهذا الحديث الذي يكاد يكون متواترا، يعرفه الصحابة والتابعين، ولم يعترضوا أو يمتعضوا أو عرف عنهم أنهم نهو عن زيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبيه، بل أجمعوا على وجوب السلام عليهم عند زيارة المسجد النبوي، أما إذا كان المقصود زيارة أضرحة الأولياء فنراها سنّة ودليلها هذا الحديث الذي رواه البيهقي عن أبي سعيد الخدري وعائشة ﵄ (أن أبا سعيد الخدري دخل على عائشة، فقالت له عائشة: يا أبا سعيد، حدثني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، وأحدثك بما رأيته يصنع، قال أبو سعيد: كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى صلاة الصبح، قال: اللهم أملئ سمعي نورا، وبصري نورا، ومن بين يدي نورا، ومن خلفي نورا، وعن يميني نورا، وعن شمالي نورا، ومن فوقي نورا، ومن تحتي نورا، وعظم لي النور برحمتك، وفي رواية أخرى: وأعظم لي نورا، ثم اتفقا، قالت عائشة: دخل علي رسول الله ﷺ

فوضع عنه ثوبيه، ثم لم يستتم أن أقام فلبسهما، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنه يأتي بعض صويحباتي فخرجت أتبعه، فأدركته بالبقيع- بقيع الغرقد- يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء، فقلت: بأبي وأمي، أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا، فانصرفت فدخلت حجرتي ولي نفس عال، ولحقني رسول الله ﷺ، فقال: ما هذا النفس يا عائشة؟ فقالت: بأبي وأمي أتيتني فوضعت عنك ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع، قال: يا عائشة، أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟ بل أتاني جبريل (عليه السلام) فقال: هذه الليلة ليلة النصف من شعبان، ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعور غنم كلب، لا ينظر الله فيها إلى مشرك، ولا إلى مشاحن، ولا إلى قاطع رحم ولا إلى مسبل، ولا إلى عاق والديه، ولا إلى مدمن خمر، قالت: ثم وضع منه ثوبيه، فقال لي: يا عائشة، تأذنين لي في قيام هذه الليلة؟ فقلت: نعم بأبي وأمي، فقام فسجد ليلا طويلا حتى ظننت أنه قبض فقمت ألتمسه ووضعت يدي على باطن قدميه فتحرك ففرحت، وسمعته يقول في سجوده: أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، جل وجهك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فلما أصبح ذكرتهن له، فقال : يا عائشة، تعلمتهن؟ فقلت: نعم، فقال: تعلميهن وعلميهن، فإن جبريل عليه السلام علمنيهن وأمرني أن أرددهن في السجود)، والسؤال لماذا غادر الرسول صلى الله عليه وآله مكانه بعد أن وضع ثيابه وذهب إلى بقيع الغرقد، ألا يدل هذا على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يلتمس الأماكن المباركة التي يستجاب فيها الدعاء، وأن مدافن الصالحين يتبارك بها، والحديث الآخر الذي يؤكد هذا القول الحديث الذي صححه البصيري في إتحاف الخيرة عن ابن عباس (أن النبي ﷺ لما وجه محمد بن مسلمة وأصحابه إلى ابن الأشرف ليقتلوه مشى معهم النبي ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم

، ثم قال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعـنهم، ثـم رجـع)، لمـاذا للمـرة الألـف ذهـب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى نفس المكان للدعاء لأصـحابه بـأن يعيـنهم الله عـلى عدوهم. وأقوى الأدلة التي لا يجحدها إلا مكابر، قبر الرسول الأعظـم عليـه وآلـه أزكـى صلاة وأطيب تسليم، وصاحبيه، لم نسمع على مدة القرون التـي مضـت مـن ينكـر عـلى المسلمين الصلاة في مسجد تبارك بأجسادهم الطاهرة الشريفة، إلا هـذه الفئـة التـي ابـتلي المسلمون بها. وفي الحديث الذي صححه أحمد شاكر في مسند أحمد عن الصـحابي طلحـة بن عبيد الله (**خرجْنا معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ حتَّى إذا أشرَفْنا على حرَّةِ واقـمٍ قـالَ فـدنَونا منهـا فإذا قبورٌ بمحنيَّةٍ قُلنا يا رسولَ اللَّهِ قبورُ إخوانِنا هذِهِ. قالَقبورُ أصحابِنا، ثمَّ خرجْنا حتَّـى إذا جِئنا قبورَ الشُّهداءِ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ هذِهِ قبورُ إخوانِنا**)، الواضح من الحـديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج لزيارة قبور الشهداء.

من هذه الأدلة كان استحسان إقامة القباب على أضرحة الصالحين ليتبارك بهم المكان، ويصبح من الأمكنة التي يستجاب فيها الدعاء، الذي لا يتوجه به المسلم لغير الله سـبحانه وتعالى، وقد رأيت بأم عيني، أئمة وفقهاء مشهود لهـم بـالعلم والـورع والتقـوى يـزورون مقامات الأولياء تبركا، وهم مـن كبـار العلمـاء قضـاة ومفتيـين، وكبـار مشـائخ الأزهـر والقرويين والزيتونة، وغيرها في بلاد شنقيط والمغرب والجزائر وتونس والشام والعـراق والهند والسنغال والسودان واليمن وغيرها، وجلهم من العلماء الجهابدة العاملين الزهاد.

فهل يعود الطغاة إلى رشدهم، ويبتعدوا عن معاداة أولياء الله دون حجة أو سبب، ونحن نطلب من كل معتقد في بركة تلك الأماكن أن يتوجه إلى الله الذي لا منجى ولا ملجأ منه إلا إليه، أن يرفع أكف الضراعة متوسلا إلى الله بحبيبه صاحب الوسيلة والشـفاعة، أن يرشـدنا إلى سبيل الحق ويرزقنا إتباعه ويبين لنا الباطل ويقدرنا على اجتنابه. ولا حـول ولا قـوة إلا بالله العلي العظيم. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله الطيبين الطاهرين، والرضا على الصحابة أجمعين والشهداء والأولياء والصـالحين، ومـن نسـج عـلى منـوالهم إلى يـوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. والحمد لله رب العالمين.

فتوى دار الإفتاء المصرية في الخصوص
الرقم المسلسل : 2239. التاريخ : 2012/01/01

مسجدٌ يوجد بجواره ضريح، ويقع الضريح في جهة عكس القبلة، وتوجد مساحة مقترحة ضعف مساحة المسجد الحالية مما لا يستوجب ضرورة إزالة الضريح، وهذا الضريح موجود في أقدم الخرائط ضمن معالم الجهة، وعدد قليل جدًّا من أهل البلدة يريد إزالة الضريح حتى تكون الصلاة في المسجد صحيحة، وعدد كبير جدًّا من أهل القرية يريد تجنب هدم الضريح وتجديد المسجد التابع للأوقاف وترك الضريح كما هو. فما رأي الدين وما الحكم بين الرأيين؟ مع العلم أن الضريح مسجل بالجهات المعنية

الجواب : أمانة الفتوى بدار الإفتاء المصرية:

من المقرر شرعًا أن مكان القبر إما أن يكون مملوكًا لصاحبه قبل موته، أو موقوفًا عليه بعده، وشرط الواقف كنصِّ الشارع؛ فلا يجوز أن يُتَّخَذَ هذا المكان لأي غرض آخر، وقد حرَّم الإسلامُ انتهاكَ حرمة الأموات؛ فلا يجوز التعرض لقبورهم بالنبش؛ لأن حرمة المسلم ميتًا؛ كحرمته حيًّا، فإذا كان صاحب القبر مِن أولياء الله تعالى الصالحين فإن الاعتداء عليه بنبش قبره أو إزالته تكون أشد حرمةً وأعظم جُرمًا؛ فإن إكرام أولياء الله تعالى ومعرفة حقهم أحياءً وأمواتًا من أقرب القربات وأرجى الطاعات قبولًا عند رب البريات، وقبورهم روضات من رياض الجنة، ويجب على المسلمين أن يأخذوا على يد مَن تُسوِّلُ له نفسه انتهاكَ حرمة الأموات، وبخاصة أولياء الله الصالحين مِن أهل البيت وغيرهم؛ فإنهم موضع نظر الله تعالى، ومَن نالهم بسوء أو أذًى فقد تعرض لحرب الله عز وجل؛ كما جاء في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ» رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ.

وبناءً على ذلك: فإن إزالة الأضرحة من المساجد أو نقل رفاتها إلى أماكن أخرى -تحت أي دعوى، حتى لو كانت توسعة المسجد وتجديده- هو أمر محرمٌ شرعًا؛ لما فيه من الاعتداء السافر على حرمة الأموات، وسوء الأدب مع أولياء الله الصالحين، وهم الذين توعد الله مَن آذاهم بأنه قد آذنهم بالحرب، وقد أُمِرنا بتوقيرهم وإجلالهم أحياءً وأمواتًا، ولا يجوز التوصل إلى فعل الخير بالباطل، ومن أراد توسعة مسجد أو تجديده يجب عليه شرعًا أن يُبْقِيَ الضريح الذي فيه في مكانه حتى لو أصبح وسط المسجد، أو يُتْرَك المسجد كما هو حتى يقيض الله تعالى له مَن يتولى توسعته مِن عباده المخلصين الذين يعرفون لأوليائه قدرهم وحرمتهم، وينأون بأنفسهم عن التعدي على أضرحة الصالحين؛ لتتحقق إقامةُ المساجد على تقوى مِن الله تعالى ورضوان.

ودار الإفتاء المصرية تهيب بعموم المسلمين إلى التصدي لهذه الدعوات الهدامة التي ما تفتأ ترفع عقيرتها بين الفَيْنَة والأخرى زاعمة أن قبور الصالحين التي بنى المسلمون المساجد عليها شرقًا وغربًا سلفًا وخلفًا -بدءًا بنبيها صلى الله عليه وآله وسلم- في روضته الشريفة بالمدينة المنورة، ومرورًا بالصحابة وآل البيت الكرام؛ كسيدنا أبي بصير في جدة البحر، والإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة بأرض مصر، والأئمة المتبوعين؛ كالشافعي والليث بن سعد بمصر، وأبي حنيفة وأحمد ببغداد، وأولياء الله الصالحين؛ كالشيخ عبد القادر الجيلاني الحنبلي ببغداد وأبي الحسن الشاذلي بمصر، وعلماء الأمة ومحدثيها؛ كالإمام البخاري في بخارى وابن هشام الأنصاري والعيني والقسطلاني وسيدي أحمد الدردير في مصر، وغيرهم ممن يضيق المقام عن حصرهم- هي من شعائر الشرك وأعمال المشركين، وأن المسلمين إذ فعلوا ذلك فقد صاروا مشركين بربهم سبحانه، ويجعلون التوسل بالأنبياء والصالحين وتعظيم أماكنهم وزيارة أضرحتهم -مما أطبقت عليه الأمة وعلماؤها جيلًا إثر جيل- ضربًا من ضروب الوثنية والشرك، غير عابئين بتراث الأمة ومجدها وحضارتها، فلا يعود المسلم يحس بمجد تاريخي ولا علمي ولا ثقافي ينتسب إليه، ولا يعود يرى سَلَفَه إلا شُذَّاذ آفاقٍ مُضللين يعبدون غير الله ويشركون به من غير أن يشعروا، فينهار المسلم أمام نفسه

ويصغر في عين ذاته؛ وذلك كله جريًا منهم وراء فهم سقيم لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي وردت في المشركين الذين يعبدون غير الله، لا في المسلمين الموحدين الذين يحبون الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأولياء الله الصالحين ويكرمونهم أحياءً وأمواتًا، وهذه كلها دعاوى الخوارج؛ يعمدون إلى الآيات التي نزلت في المشركين فيجعلونها في المسلمين؛ كما رواه الإمام البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في وصف الخوارج تعليقًا، ووصله الطبري في «تهذيب الآثار» بسندٍ صحيح. فعلى المسلمين أن يأخذوا على تلك الأيدي الآثمة التي لا تريد أن تعرف لقبور الصالحين حرمةً، ولا أن ترقب في أولياء الأمة إلًّا ولا ذمةً. أما عن حكم الصلاة في المساجد التي يوجد بها أضرحة الأولياء والصالحين فهي صحيحةٌ ومشروعةٌ، بل إنها تصل إلى درجة الاستحباب، وذلك بالكتاب، والسُّنَّة، وفعل الصحابة، وإجماع الأمة الفعلي.

– فمن القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: 21].وسياق الآية يدل على أن القول الأول هو قول المشركين، وأن القول الثاني هو قول الموحِّدين، وقد حكى الله تعالى القولين دون إنكار؛ فدل ذلك على إمضاء الشريعة لهما، بل إن سياق قول الموحدين يفيد المدح؛ بدليل المقابلة بينه وبين قول المشركين المحفوف بالتشكيك، بينما جاء قول الموحدين قاطعًا، وأن مرادهم ليس مجرد البناء بل المطلوب إنما هو المسجد.قال الإمام الرازي في «تفسيره»: [﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾: نعبد الله فيه، ونستبقي آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد] أ.هـ. وقال الشهاب الخفاجي في «حاشيته على تفسير البيضاوي»: [في هذه دليل على اتخاذ المساجد على قبور الصالحين] أ.هـ.

- ومن السُّنَّة: حديث أبي بصير ﷺ الذي رواه عبد الرزاق عن مَعمَر ﷺ، وابن إسحاق في «السيرة»، وموسى بن عُقبة في «مغازيه» -وهي أصح المغازي كما يقول الإمام مالك- ثلاثتهم عن الزُّهرِي عن عُروة بن الزُّبَير ﷺ عن المِسوَر بن مَخرَمة ومروان بن الحكم ﷺ: أن أبا جَندَلِ بن سُهَيل بن عمرو ﷺ دفن أبا بَصِير ﷺ لَمَّا مات وبنى على قبره مسجدًا بسِيف البحر، وذلك بمحضر ثلاثمائة من الصحابة. وهذا إسناد صحيح؛ كله أئمة ثقات، ومثل هذا الفعل لا يخفى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومع ذلك فلم يَرِد أنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر بإخراج القبر من المسجد أو نبشه.كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «في مسجد الخَيفِ قَبرُ سبعين نبيًّا» أخرجه البزار والطبراني في «المعجم الكبير»، وقال الحافظ ابن حجر في «مختصر زوائد البزار»: [هو إسناد صحيح] أ.هـ.وقد ثبت في الآثار أن سيدنا إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر ﵂ قد دُفِنا في الحِجر من البيت الحرام، وهذا هو الذي ذكره ثقات المؤرخين واعتمده علماء السِّيَر؛ كابن إسحاق في «السيرة»، وابن جرير الطبري في «تاريخه»، والسهيلي في «الروض الأنف»، وابن الجوزي في «المنتظم»، وابن الأثير في «الكامل»، والذهبي في «تاريخ الإسلام»، وابن كثير في «البداية والنهاية»، وغيرهم من مؤرخي الإسلام.

وأقرَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك ولم يأمر بنبش هذه القبور وإخراجها من مسجد الخيف أو من المسجد الحرام.

– وأما فعل الصحابة: فقد حكاه الإمام مالك في «الموطأ» بلاغًا صحيحًا عندما ذكر اختلاف الصحابة في مكان دفن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: [فقال ناسٌ: يُدفَنُ عندَ المِنبَرِ، وقال آخَرُونَ: يُدفَنُ بالبَقِيعِ، فجاءَ أبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ فقال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله وسلم يقولُ: «ما دُفِنَ نَبِيٌّ قَطُّ إلَّا في مَكانِهِ الذي تُوُفِّي فيه»، فحُفِرَ له فيه] أ.هـ. والمنبر من المسجد قطعًا، ولم ينكر أحد من الصحابة هذا الاقتراح، وإنما عدل عنه أبو بكر تطبيقًا لأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يُدفَن حيث قُبِضَت روحه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم؛ فدُفِن في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها المتصلة بالمسجد الذي يصلي فيه المسلمون، وهذا هو نفس وضع المساجد المتصلة بحجرات أضرحة الأولياء والصالحين في زماننا.وأما دعوى الخصوصية في ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فهي غير صحيحة؛ لأنها دعوى لا دليل عليها، بل هي باطلة قطعًا بدَفنِ سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما في هذه الحجرة التي كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تعيش فيها وتصلِّي فيها صلواتها المفروضة والمندوبة؛ فكان ذلك إجماعًا من الصحابة رضي الله عنهم على جوازه.

– ومن إجماع الأمة الفعلي وإقرار علمائها لذلك: صلاة المسلمين سلَفًا وخَلَفًا في مسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والمساجد التي بها أضرحة من غير نكير، وإقرار العلماء من لدن الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة الذين وافقوا على إدخال الحجرة النبوية الشريفة إلى المسجد النبوي سنة ثمان وثمانين للهجرة، وذلك بأمر الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة حينئذٍ عمر بن عبد العزيز رحمه الله، ولم يعترض منهم إلا سعيد بن المُسَيب، لا لأنه يرى حرمة الصلاة في المساجد التي بها قبور، بل لأنه كان يريد أن تبقى حجرات النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما هي يطَّلع عليها المسلمون حتى يزهدوا في الدنيا ويعلموا كيف كان يعيش نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم.وأما حديث السيدة عائشة رضي الله عنها في «الصحيحين» أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ والنَّصارى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبيائِهم مَساجِدَ»؛

فالمساجد: جمع مَسجِد، والمسجد في اللغة: مصدر ميمي يصلح للدلالـة عـلى الزمـان والمكان والحدث، ومعنى اتخاذ القبور مساجد: السجود لها على وجه تعظيمها وعبادتها؛ كما يسجد المشركون للأصنام والأوثان -كما فسَّرَته الرواية الصحيحة الأخرى للحديث عند ابن سعد في «الطبقات الكبرى» عن أبي هريـرة ﷺ مرفوعًـا بلفـظ: «اللهـم لا تجعـل قبري وثنًا؛ لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، فجملـة «لعـن الله قومًـا...» بيـانٌ لمعنى جَعل القبر وثنًا، والمعنى: اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُسجَدُ لـه ويُعبَـد؛ كمـا سـجد قوم لقبور أنبيائهم. قال الإمام البيضاوي: [لما كانت اليهـود والنصـارى يسـجدون لقبـور أنبيائهم؛ تعظيمًا لشأنهم، ويجعلونها قبلة، ويتوجهون في الصلاة نحوها، واتخذوها أوثانًا، لعنهم الله ومنع المسلمين عن مثل ذلك ونهاهم عنه، أما من اتخذ مسجدًا بجوار صالحٍ أو صلَّى في مقبرته وقصد به الاستظهار بروحه ووصول أثر من آثار عبادته إليه -لا التعظيمِ له والتوجه- فلا حرج عليه، ألا ترى أن مدفن إسماعيل في المسجد الحرام ثم الحطـيم، ثـم إن ذلك المسجد أفضل مكان يتحرى المصـلي بصـلاته، والنهـي عـن الصـلاة في المقـابر مختص بالمنبوشة؛ لِما فيها من النجاسة] أ.هـ.

وبناءً على ذلك فإن الصلاة في المساجد التي بها أضـرحة الأوليـاء والصـالحين جـائزة ومشروعة، بل ومستحبة أيضًا، والقول بتحريمها أو بطلانها قولٌ باطل لا يُلتَفَتُ إليـه ولا يُعَوَّلُ عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

نصيحة خاصة للمريدين من أهل التصوف

أولا اعلم أخي أن التصوف علم ذوقي فمن ذاق عرف، ومنهج تربوي لمن يدرك أن التقوى لا تكون بمعرفة الحلال والحرام بل التقوى تكمن في إلزام النفس بما عرفت من الحق،والبداية تكون بإدراك وطأة الذنوب، وبذل الجهد في التوبة،وتدور هذه النصيحة المنقولة عن كبار الصالحين من أئمة القوم، على ثلاثة أصول وهي: الخوف، والرجاء، والحب. فالخوف فرع التوبة، والرجاء فرع اليقين، والحب فرع المعرفة، فدليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب، ودليل الحب الإيثار (إيثار المحبوب). ومثال ذلك الصلاة في الحرم والمسجد وداخل الكعبة، فمن هرب من الدنيا إلى الصلاة في حرم إرادة الخوف من المعصية أمن من الخلق وفتنتهم، ومن طلب الصلاة داخل مسجد الرجاء أمنت جوارحه من أن تستعمل في غير طاعة الله، ومن آثر الصلاة داخل كعبة الحب أمن قلبه أن يشتغل بغير ذكر الله عز وجل. ومن تأمل في توارد الليل والنهار تبين له أن الظلمة والنور لا يجتمعان، فإذا ظهر أحدهما عزل الآخر عن الولاية، فكذلك نور المعرفة بالله إذا ظهر عزل ظلمة المعاصي عن الجوارح، فإذا كانت حالته حالة يرضاها لساعة الأجل شكر الله على توفيقه وعصمته، وإذا كانت حالته حالة يكره الموت عندها، انتقل بصحة العزيمة وكمال الجهد، وعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، كما أنه لا وصول له إلا به، فندم على ما أفسد من عمره بسوء اختياره، واستعان بالله على تطهير ظاهره من الذنوب، وتصفية باطنه من العيوب، وقطع زنار الغفلة عن قلبه وأطفأ نار الشهوة عن نفسه واستقام على طريق الحق وركب مطية الإخلاص والصدق، فإن النهار دليل الآخرة، والليل دليل الدنيا، والنوم شاهد الموت، والعبد قادم على ما أسلف ونادم على ما خلّف، يقول الله عز وجل : ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾.

اعلم أيها المريد وأنت تتلمس طريق الهداية أن تربية التصوف تشتغل على القلب، والقلوب على أربعة أنواع، رفع، وفتح، وخفض ووقف. فرفع القلب في ذكر الله، وفتح القلب في الرضاء عن الله، أما الخفض نجاكم ونجانا الله منه ففي الاشتغال بغير الله، والوقف يحفظنا ويحفظكم الله منه ففيه الغفلة عن الله تعالى.

وعلامة الرفع ثلاثة أحوال، موافقة القلب على أحكام الشارع، وفقدان الرغبة في المخالفة، ودوام الشوق للطاعات. أما علامة الفتح فثلاثة، التوكل على الله والصدق في الأقوال والأفعال واليقين بالله.

وعلامة الخفض ثلاثة أشياء نسأل الله السلامة منها، العجب بالحال والرياء في الأعمال والحرص على الدنيا ومراعاتها، أما علامة الوقف والعياذ بالله، زوال حلاوة الطاعات، وعدم الإحساس بمرارة المعصية، وتلبيس الحرام بالحلال.

ولن يحصل المريد على الرفع والفتح، كما أنه لن ينجو من الخفض والوقف، إلا بالرعاية الربانية التي أساسها الذكر المؤسس على العلم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (**طلب العلم فريضة على كل مسلم**)، صححه السيوطي في الجامع الصغير، فالعلم يجب أن يكون نفَس المريد شكرا أو عذرا. فإن قُبل عمله فبفضل من الله، وإن رد فبعدله سبحانه وتعالى، فحركة الطائع لا تكون إلا بتوفيق من الله، والسكون عن المعصية لا يتوفر إلا بعصمة من الله، ولا يستقيم للمريد ذلك إلا بدوام الافتقار والاضطرار. ومفتاح ذلك ذكر الموت في كل لحظة لأن فيه راحة من الحبس في مدارات الشهوات الزائلة، ونجاة من الشيطان وحبائله المخادعة، وقوام ذلك برد العمر إلى لحظة واحدة، ولن يلتئم ذلك إلا بالتفكر في الأوقات، ولن يتحقق التفكر إلا بتفريغ النفس من حب الدنيا، وسبب الفراغ منها هو الزهد فيها، وعماد الزهد التقوى، وسنام التقوى الخوف،

وزمام الخوف اليقين، ونظام اليقين الخلوة والرجوع، وتمامهما الجهد والصبر، وطريقهما الصدق، ودليل الصدق العلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:282]. وفي كل الأحوال لا بد للعبد من النية في كل حركة وسكون، (**فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، ونية المؤمن خير من عمله**) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن الصحابي أبي أيوب الأنصاري، والنية تختلف على حسب اختلاف الأوقات، وصاحب النية نفسه في تعب والناس منه في راحة، وليس شيء على المريد أصعب من حفظ النية. وحتى تصفو نيتك لله خالصة، اجعل قلبك قبلة لسانك فلا تنطق إلا بما تعتقد، واشعر عند الذكر حياء العبودية وهيبة الربوبية، واعلم بأن الله يعلم سرّ قلبك، ويرى ظاهر فعلك، ويسمع نجوى قولك، فاغسل قلبك بالحزن، وأوقد فيه نار الخوف، فإذا زال حجاب الغفلة عن قلبك كان ذكرك به موافقا لذكره لك قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت:45]، لأنه ذكرك وهو غني عنك، وأنت ذكرته وأنت فقير إليه، وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28]، فيكون الاطمئنان في ذكر الله للذاكرين، ووجله في ذكرهم له، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:2]، والذكر ذكران: ذكر خالص بموافقة القلب مع سقوط النظر إلى غير الله، وذكر صاف بفناء الهمّة عن الذكر. قال صلى الله عليه وآله وسلم: (**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**) مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وأجمل الذكر أن يكون شكرا لله المنعم، ففي كل ترديدة نفَس من أنفاس العبد نعمة من الله تتجدد عليه، واجب عليه القيام بشكرها، وأدنى الشكر أن يرى النعمة من الله تعالى، ويرضى بما أعطاه، ولا يخالفه باستعمال شيء من نعمه، وتمام الشكر في الاعتراف بلسان السر أن الخلق كلهم يعجزون عن شكره على أصغر جزء من نعمه، وإن بلغوا في ذلك غاية المجهود، لأن التوفيق للشكر، نعمة حادثة مضافة يجب الشكر عليها، فيلزمك على كل شكر شكرا إلى ما لا نهاية له، فإذا تولّى الله العبد حمل عنه شكره، فرضي باليسير وحط عنه ما يعلم أنه لا يبلغه ويضعفهن ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:20].

اعلم أيها المريد الصوفي، أن اللباس نعمة من نعم الله عليك، ولباس التقوى ذلك خير، وخير لباسك ما لا يشغل سرك عن الله تعالى، فإذا لبست ثوبك فاذكر محبة الله الستر على عباده، فلا تفضح أحدا من خلقه بغيب تعلمه منه، واشتغل بعيوب نفسك، فاسترها بدوام الاضطرار إلى الله تعالى في تطهيرها، فإن العبد إذا نسي ذنبه كان ذلك عقوبة له، وازداد بذلك جرأة على المعاصي، ولو انتبه من رقدة الغفلة لنصب ذنوبه بين عيني قلبه نصبا، ولبكى عليه بجفون سرّه، واستولى عليه الوجل فذاب حياء من ربّه، وما دام العبد يرجع إلى حول نفسه وقوتها، انقطع عن حول الله وقوته، فاطرح همتك بين الخوف والرجاء، ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:99]. فإذا قمت من فراشك، فأقم قلبك عن فراش البطالة، وأيقظ نفسك من نوم الجهالة، وانهض بكلّك إلى من أحياك ورد إليك نفَسَك، وقم بفكرك عن حركتك وسكونك، واصعد يقلبك إلى الملكوت الأعلى ولا تجعل قلبك تابعا لهوى نفسك،فإن هوى النفس يميل إلى أرض الشهوات، والقلب يميل إلى سماء الطاعات، واستعمل قول الخالق جل وعلا: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:10]. فطهر ظاهرك وباطنك عن دنس الإساءة، واخلص أعمالك عن كدر الرياء والعجب، واجل قلبك بصافي ذكره ودع عنك ما لا ينفعك بل يضرك، فنكس رأس همتك، وأغلق باب الكبر وافتح باب الندم، واجلي عل بساط الندامة، واجتهد في إيثار أمره واجتناب نهيه، واصبر على حكمه، واغسل شرّك بترك الغضب والشهوة، واستعمل الرغبة في المغفرة والرهبة من المعصية، فإن الله تعالى مدح قوما فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:90]. ولتكن صفوتك مع الله كصفوة الماء ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا ﴾ [ق: 9]، فاغسل ببركة الله وجه قلبك عن النظر إلى غير الله، واغسل يدك عن الامتداد إلى غيره، وامسح رأسك عن الافتخار بغيره، واغسل رجليك عن السعي لغيره، واحمد الله على ما ألهمك من دينه. واعلم أن لله تعالى عليك حقوق، يلزمك أداؤها، من ذلك السكينة والوقار والاعتبار بخلق الله برهم وفاجرهم،

قـــــال تعـــــالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:43]، وغض بصرك عن نظر الغفلة والشهوة، وافش السلام مبتدئا ومجيبا، وأعن من استعانك على الحق، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر إن كنت من أهل الأمر والنهي، وارشد الضال. واعلم دائما أنك في حضرة ملك عظيم قدره، لا يقبل إلا الطاهر ولا يصعد إليه إلا الخالص، وفكر في نفسك من أنت ولمن أنت ومن أي ديوان يخرج اسمك، فإذا استخلصت نفسك لخدمته، فادخل بأمان إلى حضرته بإذنه، وإلا فقف وقوف مضطر قد انقطعت عنه الحيل، وانسدت عنه السبل، فإذا علم الله من قلبك الالتجاء إليه أذن لك فتكون أنت بلا أنت والله يرحم عبده ويكرم من التجأ تائبا إلى حضرته، ويعطي سائله ويبر المعرض عنه، فكيف لا يقبل المقبل إليه مهما كثرت ذنوبه وقد وسعت رحمته كل شيء. فأكثر من الدعاء لله كما أمرك وكن على يقين من إجابته، فقط عليك أن تحفظ آداب الدعاء، بالنظر لمن تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو، ولماذا تسأل، فالدعاء استجابة منك للحق، وإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تشترط الإجابة، قال مالك ابن دينار (أنتم تستبطؤون المطر وأنا أستبطئ الحجر)، ولو لم يأمر الله سبحانه بالدعاء لوجب علينا أن ندعوه،ولو لم يشترط لنا الإجابة لكنا إذا أخلصنا له الدعاء تفضل بالإجابة، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرط الدعاء، قال تعالى: ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان:77]، وقال عز من قائل: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:60]، وسئل أبو يزيد البسطامي عن اسم الله الأعظم، فقال فرغ قلبك من غيره وادعه بما شئت من أسمائه، وقال يحيى بن معاذ اطلب صاحب الاسم، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(لا تعجِزوا في الدُّعاءِ فإنَّه لنْ يهلِكَ مع الدُّعاءِ أحَد)** أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة، وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: **(قال الله تبارك وتعالى من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)** أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء،

وقال أبو الحسين الوراق، دعوت الله مرة فاستجاب دعائي فنسيت الحاجة، فاحفظ حق الله عز وجل عليك في الدعاء ولا تشتغل بحظك فإنه أعلم بمصلحتك. فاطلب السلامة، فليت من طلبها وجدها، فكيف لمن تعرض للبلاء، والسلامة قد عزّت في هذا الزمان، وهي في الخمول، فإن لم تكن في الخمول فالعزلة، وليست كالخمول، فإن لم تكن عزلة فالصمت، وليس كالعزلة، فإن لم تكن في صمت فالكلام بما ينفع ولا يضر، وليس كالصمت، وإن أردت السلامة فلا تنازع الأضداد، ولا تنافس الأشكال، كل من قال أنا فقل أنت، وكل من قال لي فقل لك، والسلامة في زوال العرف، وزوال العرف في فقد الإرادة، وفقد الإرادة في ترك دعوى العلم فيما استأثر به من تدبير أمرك، قال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:36]، وقال: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [السجدة:5].

وحتى يفهم المريد ما تعنيه العزلة، نبين له أن صاحبها يحتاج إلى عشرة أشياء: علم الحق والباطل، والزهد واختيار الشدّة، واغتنام الخلوة والسلامة، والنظر في العواقب، وأن يرى غيره أفضل منه، ويعزل عن الناس شرّه، ولا يفتر عن العمل، فإن الفراغ بلاء ولا يعجب بما هو فيه ويخلو بيته من الفضول، والفضول ما فَضُل عن يومك لأهل الإرادة، وما فِضُل عن وقتك لأهل المعرفة، ويقطع ما يقطعه عن الله تعالى، وقال عيسى ابن مريم عليه السلام (املك لسانك وليسعك بيتك وانزل نفسك منزلة السبع الضاري والنار المحرقة)، وقال (وقد كان الناس ورقا بلا شوك فصاروا شوكا بلا ورق، وكانوا أداءً يستشفى بهم فصاروا داءً لا دواء له). قيل لداود الطائي: مالك لا تخالط الناس؟، فقال: كيف أخالط من يتبع عيوبي، كبير لا يعرف الحق، وصغير لا يوقر، من استأنس بالله استوحش من غيره. وقال الفضيل: إن استطعت أن تكون في موضع لا تعرف ولا تُعرف فافعل، وقال سليمان: همّي من الدنيا أن ألبس عباءة وأكون بقرية ليس فيها أحد يعرفني ولا غداء لي ولا عشاء. وقال سيد الكائنات صلى الله عليه وآله وسلم: (**إنَّ مِنْ ورائِكُمْ أيامَ الصبرِ، الصبرُ فيهنَّ كَقَبْضٍ علَى الجمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهَا أَجْرُ خَمْسِينَ قالوا يا رسولَ اللهِ أجْرُ خمسينَ منهم أَوْ خمسينَ مِنَّا قال خمسينَ مِنْكُمْ**) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد عن عبد الله بن مسعود، وفي العزلة صيانة الجوارح

وفراغ القلب وسقوط حقوق الخلق، وإغـلاق أبـواب الـدنيا وكسـر سـلاح الشـيطان وعمارة الظاهر والباطن.وفي كل الأحوال عليك أيهـا المريـد الصـادق أن تقبـل عـلى أداء الفرائض فإن سلم لك فرضك فأنت أنت. واطلب بالنوافل حفظ الفرائض، وكلما ازددت عبادة فازدد شكرا وخوفا، قال يحيى بن معاذ عجبت لطالب فضيلة تارك فريضة، ومن كان عليه دين فأهدى إلى صاحب الدين مثل حقه كان مطالبا بالحق إذا حل الأجل. وقـال أبـو بكر الورّاق، أبذل في هذا الزمان أربعة على أربعة، الفضائل عـلى الفـرائض، والظـاهر عـلى الباطن، والخلق على النفس، والكلام على الفعل. وعليك أن تتفكر في قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:1]، واذكر كيـف أحوالـك واعتبـر بما مضى من الدنيا على ما تراه هل أبقت على أحد، وما بقي منها أشبه بما مضى مـن المـاء بالماء، وقد قال رسول الحكمة صلى الله عليه وآله وسلم: (**لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنـة**) صححه ابن حبان عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. وقيل لنـوح عليـه السـلام: كيـف وجدت الدنيا يا أطول الأنبياء عمرا؟، قال كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت مـن الآخر. والفكرة أب كل خير، وهي مرآة تريك الحسنات والسيئات.

وختاما أيها المريد المجتهـد إذا أردت لـبس خرقـة التصـوف فعليـك أولا أن تخلـع الثوب الذي كنت تلبسه في أيام العادة، وأحسن ما تلبس الصوف، المنسوب إليه التصوف، وقد قيل أن أول من لبس الصوف آدم وحواء عليهما السلام، وكان موسى وعيسى ويحيى عليهم السلام يلبسون الصوف، وكان أفضل خلق الله عليـه وآلـه الصـلاة والسـلام وهـو أشرف الأنبياء يلبس عباءة كان مقدار ثمنها خمـس دراهـم، وينبغـي أن لا يلـبس الصـوف زهدا إلا من صفي من كدر النفس، فلا تلبسوا الصوف إلا وقلـوبكم نقيـة فإنـه مـن لـبس الصوف على دغل وغش قلاه جبار السماء، فإذا لبسه وجب أن يقوم بوظائف حروفه وهي ثلاثة: أما وظيفة الصاد فهي الصدق والصفاء والصـيانة والصـبر والصـلاح، وأمـا وظيفـة الواو فهي الوصلة والوفاء والوجد،

وأما وظيفة الفاء فهي الفرح والتفجع. فلـو لـبس المرقـع وجـب عليـه أن يـؤدي حـق حروفه وهي أربعة: فحق الميم المعرفة والمجاهدة والمذلة، وحـق الـراء الرحمـة والرأفـة والرياضة والراحة، وحق القاف القناعة والقربة والقوة وقول الصدق، وحق العـين العلـم والعمل والعشق والعبودية، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بلبس المرقـع حيـث قـــال لعائشـــة رضي الله عنها في حـــديث أخرجـــه ابـــن عـــدي في الكامـــل في الضـــعفاء (**إنْ سرَّكَ اللحوقُ بي فلا تخالِطِنَّ الأغنياءَ ولا تستبدِلِي بثوبٍ حتَّى ترقَّعِيهِ**)، ولن يكون خافيا على أن معنى الصوف والمرقع هو التمظهر بمظهر التصـوف زهـدا في الـدنيا وتقربـا لمرضاة الله سبحانه.

المسبحة وفضل الذكر

المسبحة آلة اتخذت لضبط الأعداد المطلوبة التي وردت في السنة، وهي الأعداد التي يصعب على كثير من المشتغلين بالذكر ضبطها بالأنامل أو الأصابع، والمسبحة قد عرفت منذ زمن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم، إلا أنها لم تكن بهيئة المسبحة المعروفة عندنا اليوم، فقد اتخذ بعض من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين الحصى والنوى في ضبط أذكارهم، وقد كان لسيدنا أبي هريرة ﵁ خيط فيه ألفا عقدة لا ينام من الليل حتى يسبح به الله عز وجل. وقول الرسول ﷺ «اعقدوا الأنامل بالتسبيح فإنهن مسؤولات مستنطقات» لا يعارض اتخاذ مسبحة إنما هو توجيه للأفضل لا مصادرة للمفضول، وربما صعب ضم الأصابع وبسطها على البعض في الذكر الكثير فيكون اتخاذ المسبحة مهما للذاكر، والواحد منا يستعمل المسبحة بالأنامل فيكون قد جمع بين الفاضل والأفضل من توجيهات المصطفى صلي الله عليه وآله وسلم، والنظر إلى المسبحة يذكر المسلم بذكر الله عز وجل بل إن استعمال المسبحة وضبط الأعداد باعث للهمة ومنشط للذكر وهذه فائدة جليلة. ولكن يجب على متخذ المسبحة أن تكون نيته خالصة لوجه الله تعالى من غير رياء ولا سمعة. وقد رُئِيت في يد أبي القاسم الجنيد يوما سبحة فقيل له أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟، قال «طريق وصلت به إلى الله لا أفارقه»، ورُئِيت في يد الحسن البصري سبحة فقيل له يا أستاذ مع عظيم شأنك وحسن عبادتك تتخذ السبحة، فقال: «شيء استعملناه في البدايات ما كنا نتركه في النهايات أحب أن يذكر الله بقلبي ويدي ولساني»، والذي يقول إن المسبحة بدعة من مدّعيٍّ نصرة السنة نقول له إن علمك بالسنة قاصر وفهمك ضامر لأن السنة جاءت على ثلاثة أوجه، إما أن تكون سنة فعلية أو قولية أو تقريرية، فالمسبحة من السنن التقريرية التي أقرها الرسول ﷺ ولم ينكرها. وإذا علمنا أن الإكثار من الذكر قد أمر الله تعالى به في محكم تنزيله

وحثت عليه السنة النبوية المطهرة ورغبت فيه فلا نجد عجباً في اتخاذ المسبحة منذ زمن الرسول ﷺ، وإليكم بعض ما ورد في ذلك من الآيات القرآنية الكريمة وأحاديث الرسول ﷺ. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب:41-42]، وقال جل شأنه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال:45]، وقال جل من قائل : ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾[العنكبوت:45]، وحسبك أن الذكر كان خاتمة المراقي الإيمانية في قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب:35].

أما ما ورد من الأحاديث النبوية في الحث على الذكر والترغيب فيه فمنها: عن أبي هريرة ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**». متفق عليه. وعنه ﷺ أن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه».. وقال: «**من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**».. متفق عليه. وعن ثوبان ﷺ كما رواه مسلم في صحيحه، قال:

﴿كان رسولُ اللهِ ﷺ، إذا انصرف من صلاتِه، استغفر ثلاثًا وقال اللهمَّ! أنت السلامُ ومنك السلامُ . تباركت يا ذا الجلالِ والإكرامِ. قال الوليدُ:فقلتُ للأوزاعيِّ: كيف الاستغفارُ ؟، قال : تقول : أستغفرُ اللهَ ، أستغفرُ اللهَ»)،وقيل للأوزاعي وهو من رواة الحديث كيف الاستغفار قال يقول «استغفر الله استغفر الله» رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم **«قال من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»**.رواه مسلم.وعنه رضي الله عنه قال **«سمعت رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم يقول سبق المفردون، قيل ومن المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » رواه مسلم. وعن جابر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم يقول: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»** رواه الترمذي. وقال: حديث حسن. وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرني بشيء أتشبث به قال **«لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله»** رواه الترمذي وقال: حديث حسن. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: **﴿قال رسول الله ﷺ «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وإنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر﴾** رواه الترمذي وقال حديث حسن. وكما وردت الآيات والأحاديث في الحث والترغيب في ذكر الله وردت أيضا بالزجر والتقريع في عدم ذكر الله ومجافاته. يقول الله تعالى في كتابه العزيز واصفا المنافقين : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء آية 142]. وقال جل شأنه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه آية 124 – 126]

. وقال تعالى لنبييه موسى وهارون : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه: 42]. وأما ما ورد في هذا المعنى من الأحاديث فمنها: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وآله وسلم قال: **«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت»** رواه البخاري، وجاء في رواية مسلم: **(مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت)**. وقال ﷺ: **«ما قعد قوم مقعدا لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة»** أورد هذا الحديث الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين الجزء الأول ص 296 وخرجه الحافظ العراقي في تخريجه على كتاب الإحياء المسمى «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» حيث قال: ما قعد قوم.... إلخ، ورواه الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة. أما الأحاديث التي وردت في المسبحة ودلت على جواز استعمالها فمنها ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه وأبي داود في سننه والحاكم النيسابوري في مستدركه وصححه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: **(رأيت النبي ﷺ يعقد التسبيح بيده)** وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والحاكم عن بسيرة وكانت من المهاجرات قالت: قال رسول الله ﷺ: **«عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن فتنسين التوحيد واعقدن بالأنامل فإنهن مسئولات ومستنطقات»**. «وأخرج الترمذي والحاكم والطبراني عن أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها أنها قالت: **(دخل علي رسول الله ﷺ وبين يدي أربعة آلاف نواة أسبح بهن فقال: ما هذا يا بنت حيي قلت أسبح بهن قال: «قد سبحت منذ قمت على رأسك أكثر من هذا» قلت علمني يا رسول الله قال: قولي: «سبحان الله عدد ما خلق من شيء»)**صحيح أيضا.

ويستفاد من هذا الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ أقر التسبيح بالنوى مما كانت تفعله السيدة صفية أم المؤمنين ولا يدل إرشاده إليها إلى الأفضل على إنكاره لتسبيحها بالنوى. وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه. عن سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع النبي ﷺ على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح فقال: **«أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل قولي سبحان الله عدد ما خلق في السماء سبحان الله عدد ما خلق في الأرض سبحان الله عدد ما بين ذلك وسبحان الله عدد ما هو خالق والله أكبر مثل ذلك والحمد لله مثل ذلك ولا إله إلا الله مثل ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك»** ، وفي جزء هلال الحفار ومعجم الصحابة للبغوي وتاريخ ابن عساكر من طريق معتمر بن سليمان عن أبي بن كعب عن جده عن بقية عن أبي صفية مولى النبي ﷺ أنه كان يوضع له نطع (بساط من جلد) ويجاء بزنبيل (القفة الكبيرة) فيه حصى فيسبح به إلى نصف النهار ثم يرفع فإذا صلى الأولى أتي به حتى يمسي، وأخرج الإمام أحمد في الزهد قال: حدثنا عبد الواحد بن زياد عن يونس بن عبيد عن أمه قالت: رأيت أبا صفية رجل من أصحاب النبي صلي الله عليه وآله وسلم وكان جارنا قالت فكان يسبح بالحصى، وأخرج ابن سعد عن حكيم بن الديلمي أن سعدا بن أبي وقاص كان يسبح بالحصى، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن مولاة لسعد أن سعدا كان يسبح بالحصى أو النوى، وقال ابن سعد في الطبقات أخبرنا عبيد بن موسى أخبرنا إسرائيل عن جابر عن امرأة حدثته عن فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب أنها كانت تسبح بخيط معقود فيها (أي الخيط معقدا كالسبحة)، وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد من طريق نعيم بن محرز بن أبي هريرة عن جده أبي هريرة أنه كان له خيط فيه ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به. وأخرج أحمد في الزهد حدثنا مسكين بن نكير أخبرنا ثابت بن عجلان عن القاسم بن عبد الرحمن قال كان لأبي الدرداء نوى من نوى العجوة في كيس فكان إذا صلى الغداة أخرجهن واحدة واحدة يسبح بهن حتى ينفدن

.وأخرج ابن سعد عن أبي هريرة ﷺ أنه كان يسبح بالنوى المجزع (الذي حك بعضه حتى ابيض شيء منه وكل ما فيه بياض وسواد فهو مجزع). وقال الديلمي في مسند الفردوس أخبرنا عبدوس بن عبد الله أبو عبد الله الحسين بن فتحويه الثقفي قال حدثنا محمد بن هارون بن عيسى بن منصور الهاشمي قال حدثني محمد بن علي بن حمزة العلوي قال: حدثني عبد الصمد بن موسى قال حدثتني زينب بنت سليمان بن علي قال حدثتني أم الحسن بنت جعفر بن الحسن عن أبيها عن جدها علي مرفوعا: «نعم المذكِّر السبحة»، وفي الحديث ضعف محتمل للأخذ به في فضائل الأعمال. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري أنه كان يسبح بالحصى، وفي سنن أبي داود من حديث أبي نصرة الغفاري قال: حدثني شيخ من طفاوة قال تثويت (تضيفت) أبا هريرة فلم أر رجلا أشد تشميرا ولا أقوم على ضيف منه قال فبينما أنا عنده يوما وهو على سرير له ومعه كيس فيه حصى أو نوى وأسفل منه جارية سوداء وهو يسبح بها حتى إذا أنفد ما في الكيس ألقاه إليها فجمعته وأعادته في الكيس فرفعته إليه. وأخرج ابن أبى شيبة عن زاذان قال أخذت من أم يعفور تسابيح لها فلما أتيت عليا: قال اردد على أم يعفور تسابيحها والحديث موقوف على علي ويستفاد منه أن زاذان قد أخذ تسابيح أم يعفور على سبيل الإنكار لما تفعل وعندما أتى إلى سيدنا علي أمره بإرجاع هذه التسابيح إلى صاحبتها دالا بهذا الفعل على جواز اتخاذ المسابيح.

مشروعية الحضرات والذكر الجماعي

اعتاد مشايخ الطرق الصوفية وأتباعهم أن يعدوا حِلَقاً لذكر الله بالعشي والإبكار يذكرون فيها الله بصوت جهير، هذا وقد عاب بعض الدارسين على المتصوفة هذا الصنيع وزعموا أن الجهر بالذكر بدعة لم تكن على عهد رسول الله ﷺ ولم تكن على عهد سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين، الأمر الذي حتم علينا دراسة هذا الموضوع والإدلاء فيه بمأثور القول ومحفوظ السنة، وما ساقه علماء السلف الصالح تدليلا على جواز الجهر بالذكر ومنهم الإمام جلال الدين السيوطي في رسالته (نتيجة الفكر في الجهر بالذكر) التي ضمها كتابه الحاوي على الفتاوي الجزء الثاني ص 389.. يقول جلال السيوطي: اعتاد الصوفية عقد الذكر والجهر به في المساجد ورفع الصوت بالتهليل فهل ذلك مكروه أم لا؟. والجواب أن لا كراهة في شيء من ذلك وقد وردت أحاديث كثيرة تقتضي استحباب الجهر بالذكر وأحاديث تقتضي الإسرار به والجمع بينهما، إن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص وسيأتي بيان ذلك عقب إيراد الأحاديث الدالة على استحباب الجهر بالذكر تصريحا أو التزاما وهي أكثر من عشرين حديثا.

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى **«أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»** والذكر في الملأ لا يكون إلا عن جهر.

الحديث الثاني: أخرج البزار والحاكم في المستدرك وصححه عن جابر قال خرج علينا النبي ﷺ فقال **«يا أيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الـذكر في الأرض فارتعوا في رياض الجنة قالوا وأيـن ريـاض الجنـة قـال مجـالس الـذكر فاغـدوا وروحوا في ذكر الله»**.

الحديث الثالث: أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخـدري رضي الله عنهما قـال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلـت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»**.

الحديث الرابع أخرج مسلم والترمذي عن معاوية أن النبي ﷺ خـرج عـلى حلقـة مـن أصحابه فقال: «**ما يجلسكم؟**» قالوا: «جلسـنا نـذكر الله ونحمـده» فقـال: **«أتـاني جبريـل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة»**.

الحديث الخامس: أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبـى سـعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: **«أكثروا من ذكر الله حتى يقال مجنون.»**

الحديث السادس: أخرج البيهقي في شعب الإيمـان عـن أبـي الجـوزاء رضي الله عنه قـال، قـال رسول الله ﷺ: **«أكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مراءون»** مرسل ووجه الدلالـة من هذا والذي قبله أن ذلك إنما يقال عند الجهر دون الإسرار. وحديث أبي الجوزاء رغم إرساله فهو من صحيح الأحاديث التي تقف دليلا على جواز الجهر بالذكر عنـد مـن يـرى حجية المراسيل من الفقهاء وفي الحديث توجيه صريح من الرسـول ﷺ بـالجهر بالـذكر. هذا وقد جاء حديث أبي سعيد الخدري المرفوع إلى رسول الله ﷺ ليؤكـد الـدليل ويقـيم البرهان على مشروعية الجهر بالذكر أيضا وقد وصـف الحـديث المرسـل مـن ينكـر عـلى هؤلاء الذاكرين بالنفاق، ولا يضير الذاكرين شيئا أن يصفهم من يصفهم بالجنون أو الرياء لأن هذا الوصف مما أخبر به رسول الإسلام صلي الله عليـه وآلـه وسـلم، كمـا يعلـم مـن الحديثين أنه لا يستطيع العمل بهما إلا مؤمن قوي الإيمان لا يخشى في الله لومة لائـم لأن ترك العمل من أجلهم شرك والإخلاص وقوة الإيمان أن يعافيك الله من كليهما.

الحديث السابع: أخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ **«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة قال: «حلق الذكر»**.

الحديث الثامن: أخرج بقي بن مخلد عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ مر بمجلسين أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه والآخر يعلمون العلم فقال **«كلا المجلسين خير وأحدهما أفضل من الآخر»**.

الحديث التاسع: أخرج البيهقي عن عبد الله بن مغْفِل قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفور لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات»**. وتبديل السيئات بالحسنات قد جاءت به الآية الكريمة في آخر سورة الفرقان وفي وصف عباد الرحمن يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان 68-70].

الحديث العاشر: أخرج البيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: **«يقول الرب تعالى يوم القيامة: سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم» فقيل ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال: «مجالس الذكر في المساجد»**.

الحديث الحادي عشر: أخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: **إن الجبل لينادي باسمه يا فلان هل مر بك اليوم لله ذاكر فإن قال نعم استبشر ثم قرأ** ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾.. **الآية وقال: «أيسمعون الزور ولا يسمعون الخير»**.

الحديث الثاني عشر: أخرج ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ قال: **«إن المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض الموضع الذي يصلي فيه ويذكر الله فيه»**، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي عبيد قال: **«إن المؤمن إذا مات نادت بقاع الأرض عبد الله المؤمن مات فتبكي عليه الأرض والسماء فيقول الرحمن «ما يبكيكما على عبدي؟ فيقولون: ربنا لم يمش في ناحية من قط إلا وهو يذكرك»**، ووجه الدلالة من ذلك أن سماع الجبال والأرض للذكر يكون عن جهر به.

الحديث الثالث عشر: أخرج البزار والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله تعالى عبدي إذا ذكرتني خاليا ذكرتك خاليا وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم وأكثر».**

الحديث الرابع عشر: أخرج البيهقي عن زيد بن أسلم قال: قال ابن الأدرع انطلقت مع النبي ﷺ ليلة، فمر برجل في المسجد يرفع صوته (أي بالذكر) قلت: يا رسول الله عسى أن يكون هذا مرائيا قال: **«لا ولكنه أواه»،** وأخرج عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو البجادين «إنه أواه» وذلك أنه كان يذكر الله. وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر فقال رجل لولا أن خفض من صوته فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإنه أواه».، وما نرى في هذه الأحاديث إلا دليلا ملزما وحجة مفحمة لكل من يحاول الطعن على مشايخ الطرق الصوفية الذين اعتادوا الجهر بالذكر في حضراتهم في المساجد والزوايا.

الحديث الخامس عشر: أخرج الحاكم عن شداد بن أوس قال: إنا لعند النبي ﷺ إذ قال: «ارفعوا أيديكم فقولوا لا إله إلا الله» ففعلنا فقال رسول الله ﷺ: «إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد» ثم قال: «أبشروا فإن الله قد غفر لكم» .

الحديث السادس عشر: أخرج البزار عن أنس عـن النبـي ﷺ قـال: «إن لله سـيارة مـن الملائكة يطلبون حلق الذكر فإذا أتوا عليهم حفوا بهم فيقول الله تعالى **«اغشـوهم برحمتـي فهم الجلساء لا يشقى بهم جليس»**، وقد ورد أيضا في رواية ابـن شـاهين عـن جـابر: **«أنـا جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني»**.

الحديث السابع عشر: أخرج الطبراني وابن جرير عن عبد الرحمن بن سـهل بـن حنيـف قال نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعـض أبياتـه (بيوتـه) ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَـدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ ﴾.. الآية، فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله مـنهم ثـائر الـرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد لما رآهم جلس معهم وقال «الحمـد لله الـذي أمـرني أن أصبر نفسي معهم». وقد وصف الحـديث أن مـن بعـض صـفات الـذاكرين ثـائر الـرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد وهـذه الصـفات تنطبـق عـلى بعـض المتصـوفة المنكـر والمفترى عليهم من أدعياء نصرة السنة.

الحديث الثامن عشر: أخرج الإمام أحمد في الزهد عن ثابت قال: «كان سلمان في عصابة يذكرون الله، فمر النبي ﷺ، فكفوا فقال: «ما كنتم تقولـون» قلنـا كنـا نـذكر الله قـال: **«إني رأيت الرحمة تنزل عليكم»**، وأخرج الإمام أحمد في الزهد عن ثابت قـال «كـان سـلمان في عصابة يذكرون الله، فمر النبي ﷺ، فكفوا فقال: «ما كنتم تقولون» قلنا كنا نـذكر الله قـال: **«إني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها»** ثم قال: **«الحمد لله الذي جعـل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم»**.

الحديث التاسع عشر: أخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي رزين العقيلي أن رسـول الله ﷺ قال له: «**ألا أدلك على ملاك الأمر الذي تصيب به خيري الدنيا والآخرة؟» قال: بلى قال: «عليك بمجالس الذكر وإذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله»**.

الحديث العشرون: أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي والأصبهاني عن أنس قال، (**قال رسول الله ﷺ: «لأن أجلس مع قوم بعد صلاة الصبح إلى أن تطلع الشمس أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ولأن أجلس مع قوم يذكرون الله بعد العصر إلى أن تغيب الشمس أحب إلي من الدنيا وما فيها**). وهذا ما عليه كل الطرق الصوفية وذلك ابتغاء هذا الفضل العظيم والخير العميم الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث والأحاديث السابقة.

الحديث الحادي والعشرون: أخرج الشيخان عن ابن عباس قال: «إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي ﷺ» قال ابن عباس: «كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته».

الحديث الثاني والعشرون: أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجة عن السائب أن رسول الله ﷺ قال «**جاءني جبريل فقال مر أصحابك يرفعوا أصواتهم بالتكبير**».

الحديث الثالث والعشرون: أخرج المروزي في كتاب العيدين عن مجاهد أن عبد الله بن عمر وأبا هريرة كانا في السوق أيام العشر فيكبران لا يأتيان السوق إلا لذلك وأخرج أيضا عن عبيد بن عمير قال كان عمر يكبر في قبته فيكبر أهل المسجد فيكبر أهل السوق حتى ترتج مني تكبيرا وأخرج أيضا عن ميمون بن مهران قال: أدركت الناس وإنهم ليكبرون في العشر حتى كنت أشبهها بالأمواج من كثرتها.

خاتمة:

إذا تأملت ما أوردناه من الأحاديث عرفت من مجموعها أنه لا كراهة البتة في الجهر بالذكر بل فيه ما يدل على استحبابه إما صريحا أو التزاما كما أشرنا إليه، وأما معارضته بحديث «خير الذكر الخفي» فهو نظير معارضة أحاديث الجهر بالقرآن بحديث المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة، وقد جمع النووي بينهما بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى به مصلون أو نيام والجهر أفضل في غير ذلك لأن فيه خيراً أكثر ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط. وقال بعضهم يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها لأن المسر قد يمل فيأنس بالجهر والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار، وكذلك نقول في الذكر على هذا التفصيل وبه يحصل الجمع بين الأحاديث المتعارضة.

دور متصوفة شمال إفريقيا في الدفاع عن مصالح الأمة

يحتل موضوع التصوف أهمية كبرى في حياتنا الفكرية المعاصرة،وقد اختلفت آراء الباحثين في تصوف العصر الحديث، حيث رأى أهل الإنصاف من البحاث الموضوعيين فيه عنصرا إيجابيا في توجيه الحياة الاجتماعية والعقلية والسياسية وخاصة في الدعوة إلى تزكية النفس والدفاع عن الأصول والثوابت والقيم وبث الحماسة في الجماهير التي انقادت لمشايخ المتصوفة، في حين رأى فيه المغرضون كثيراً من ألوان السلبية التي انحصرت في بعض النماذج من الطرقية المتخلفة المناقضة للتصوف الحقيقي في تعميم لا يستقيم عند الباحث المتأمل لوقائع التاريخ وأحداثه.إلا أنه ونتيجة لتطور مناهج البحث الذي أضحى أكثر دقة وموضوعية في الآونة الأخيرة، بدأت تبرز دراسات محكمة كانت سببا في عودة الاتجاه الصوفي بقوة إلى الواجهة، وبدء انهيار تلك الصورة القاتمة التي كانت تقدم حول هذا التيار الفكري الراقي، من التيارات التي عرفها الفكر الإسلامي طيلة عهود طويلة من الزمن. وذلك بعد سقوط الأنظمة المناوئة لهذا الاتجاه، وفشل الحركات السلفية في قيادة المجتمعات الإسلامية. حتى باتت هذه المسألة من أهم القضايا المحورية التي يدور حولها النقاش حاليا بين المفكرين المسلمين وغيرهم، فقد اعتنق الكثير من الغربيين الإسلام عن طريق التصوف الإسلامي، وأصبح التصوف اليوم هو المظهر الرئيس للإسلام بالنسبة لكل باحث منهجي موضوعي يبحث في أحوال المسلمين وحضارتهم، وأن الكثير من الدراسات حول الحضارة الإسلامية، منصبة حصرا على التيار الصوفي دون غيره، وأكثر المفكرين والفلاسفة مقروئية لدى الغربيين هما ابن عربي وجلال الدين الرومي، وهما من أقطاب التصوف الإسلامي. يقول المستشرق الفرنسي المسلم «إريك جيوفروي» أستاذ التصوف بجامعة لوكسمبورج الفرنسية: «أن المستقبل في العالم الإسلامي سيكون حتما للتيار الصوفي».

ويرى أيضا أن الصوفية قد مارسوا السياسة في أحيان كثيرة كما مارسوا أدوارا ثقافية واجتماعية، «ثم إننا يمكن أن نلحظ أن هناك مدا جديدا من الأجيال الجديدة يعي الأبعاد الاجتماعية للصوفية».والملفت للنظر أن الكثير من البحاث الغربيين باتوا يدركون التأثير الصوفي على مفكري عصر النهضة الأوربي، فبدأت تبرز دراسات تتحدث عن تأثر ديكارت في منهجه المبني على الشك بفكر حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وتأثر من يرونه منظرا للديمقراطية الليبرالية الحديثة سبينوزا في رؤيته لوحدة الوجود بالشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي وغيرهم.

من خلال هذه المنطلقات والمعطيات أردنا الخوض في هذا الموضوع، وأن نبحث في سبب احتلال هؤلاء الصوفية هذه المكانة الرفيعة، ونرى ماذا قدم التصوف والصوفية للمجتمع الإسلامي؟، وما الذي يمكن أن يقدمه لحل أزمة العقل المسلم المعاصرة، وهل اقتصر دور المتصوفة فقط على التحرير الذاتي، وتطهير النفس من الأهواء؟، وهل مكثوا في زواياهم يرددون اسم الله الأعظم ويبحثون عن غوث الزمان، غير ملتفتين إلى ما يجري حولهم من تطورات وتغيرات؟ كما يرى بعض الناس.أم أنهم سعوا إلى تغيير واقعهم والمحيط الذي يعيشون فيه، وخدموا مجتمعاتهم عند اشتداد الأزمات وقادوها إلى بر الأمان. إن الإجابة على مثل هذه التساؤلات يتطلب أبحاثا ودراسات جادة ومعمقة سيحاول من خلالها الإجابة على كثير من الأسئلة الكبرى والهامة علماء الصوفية. وسنذكر هنا بعضًا من ملامح المتصوفة وتأثيرهم في منطقة الشمال الإفريقي بإيجاز شديد.

كانت أحوال المتصوفة هي السمة الغالبة على مجتمع الصحابة أيام الرسول ﷺ من نقاء وطهر وإخلاص وزهد، ناهيك عن مقاماتهم العلية، وأي مقام أعلى من صحبة خير البشر ﷺ، فقد كان عصره ربانيا مباركا. وسيلاحظ المدقق في الحياة الاجتماعية الناتجة عن الفتوحات الإسلامية الممتدة، الحال التي تداعت له أحوال المسلمين بعد انتشار دولتهم وإقبال الدنيا عليهم، وانغماس الكثيرون منهم في إشباع الرغبات والشهوات فتبدلت أحوالهم وتدنت مقاماتهم، عندها ظهر المتميزون بمجاهدة أنفسهم الحريصون على الإقتداء بحياة الرسول صلى الله عليه وصحبه المتأملون في ملكوت الله المصرون على التقوى، فتميزوا بين الناس فرادى أول الأمر مثل أويس القرني وغيره، ثم ظهر التصوف في التاريخ الإسلامي كمنحى فكري نظري بداية من القرن الثالث الهجري، وذلك في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، على أيدي رجال شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء بالعلم والفضل والصلاح، وأرسوا قواعد هذا التيار الحديث النشأة، ورسموا له الأسس المنهجية التي بني عليها ولا تزال إلى الآن المصادر الأساسية لهذا العلم. وقد تنوع الاتجاه الصوفي بين المدارس التربوية الذاتية، مثل مدرسة الجنيد البغدادي، وذي النون المصري، والمدارس الإصلاحية الاجتماعية مثل مدرسة الحلاج. وفي نهاية القرن الثالث الهجري، بدأ المتصوفة ينظمون أنفسهم طوائفا وطرقا يخضعون فيها لنظم خاصة بكل طريقة، وكان قوام هذه الطرق طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشد مربي يسلكهم ويبصرهم على الوجه الذي يحقق لهم كمال العلم وكمال العمل، كما نجد ذلك في بغداد في العصر العباسي الأول عند فرقة «السقطية» نسبة إلى السري السقطي و«الطيفورية» نسبة إلى أبي زيد طيفور، و«الخرازية» نسبة إلى أبي سعيد الخراز و«المحاسبية» نسبة إلى الحارث المحاسبي.فانتقل بذلك التصوف وتطور من ظاهرة أو مسألة فردية بين الإنسان وربه إلى ظاهرة اجتماعية منظمة كثر رجالها وأتباعهم كثرة ظاهرة، ومع تطور التصوف العملي وانتشار الظاهرة الصوفية لدى الأوساط الشعبية، كثر عدد الأتباع

، والتحمال مريدون بالشيخ ونسجوا حوله هالة من التقديس والتبجيل، وبدأت تظهر الطرق الصوفية بشكلها المتعارف عليه الآن. وأول ما عرف العالم الإسلامي من الطرق: الطريقة القادرية، والمدينية، والرفاعية، والشاذلية، والخلوتية. وكان من أوائل وأحد أوتاد الطريقة الصوفية في شمال إفريقيا: الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي، وقد عرفت طريقته «المدينية» شهرة واسعة وأتباعا كثيرين، في مختلف أنحاء الشمال الإفريقي، وازدادت شهرة على يد تلميذه عبد السلام بن مشيش (ت 665هـ 1228 ميلادي)،ثم ازدادت نشاطا وأحياها من بعده شيخ الطائفة الشاذلية وتلميذ ابن مشيش:«أبو الحسن الشاذلي». وكان لتعاليم الشاذلي الأثر الأكبر بحيث يمكن الجزم بأن معظم الطرق التي ظهرت بعد القرن الثامن في شمال أفريقيا تتصل بطريقة أو بأخرى بالطريقة الشاذلية. ومن أبرز علماء الشمال الإفريقي الذين شاع التصوف العملي وانتشر بفضلهم المرسي أبي العباس وأحمد البدوي و أبي عطاء الله السكندري وعبد الرحمن الثعالبي وأحمد زروق وعبد السلام الأسمري وامحمد بن عيسى وأحمد بن إدريس ومحمد ماضي أبو العزائم وغيرهم . ويمكن أن نرجع عوامل وأسباب انتشار التصوف في شمال أفريقيا،إلى أسباب فكرية، وأسباب سياسية، وأسباب اجتماعية:

1 – أسباب فكرية: كوجود أعلام صوفية عملوا على نشر هذه الطرق، أثروا بسلوكهم وبعلمهم وبمؤلفاتهم، من أمثال الشيخ أبي مدين، والشاذلي، والملياني، والثعالبي...وغيرهم. وبدأ الفكر الصوفي يبرز علميا بعد محاولة الإمام الغزالي التوفيق بين الشريعة والحقيقة.، خاصة ما طرحه حول مراتب العقل بداية من العقل الكسبي وهو مدخل المعرفة، ثم العقل الذوقي وهو مدخل التقوى بالتزام العارف بما عرف، ثم انتظار الموهبة، وهو مدخل العلم اللدني (واتقوا الله ويعلمكم الله).

2 – أسباب سياسية: نتيجة لأسباب داخلية وخارجية تدهورت أوضاع المنطقة سياسيا لعدة أسباب أهمها وأخطرها سقوط الأندلس وقد نتج عنه أمران: الغزو الإسباني لمعظم الشمال الإفريقي، وهجرة كثير من صوفية الأندلس إلى شمال إفريقيا.

3- أسباب اجتماعية: منها انتشار البذخ والترف عند طبقات معينة، نتيجة الثراء الفاحش، وتراجع القيم الدينية والأخلاقية حيث أهمل الخاصة والعامة الكثير من مبادئ الدين وسلوكه القويم، وقد حارب الصوفية هذا الانحراف، وقاوموا بكل السبل والطرق هذه الاختلالات، مما أدى إلى انتشارهم جماهيريا.

وقد بدأ انتشار التصوف على مرحلتين:

فترة التصوف النخبوي، وذلك خلال القرون السادس والسابع والثامن الهجرية: وهي الفترة التي بقي فيها التصوف يدرس في المدارس الخاصة، واقتصاره على طبقة معينة من المتعلمين، وعدم انتشاره بين الطبقات الشعبية،وبقائه في الحواضر الكبرى.

فترة التصوف الشعبي، وتعرف بفترة الانتقال من التصوف الفكري إلى التصوف الشعبي، وقد وقع ذلك في القرن التاسع الهجري، وفيها انتقل التصوف من الجانب النظري إلى الجانب العملي، وهو الانتشار الكبير للزوايا والرباطات في الريف والمدن، وانضواء الآلاف من الناس تحت لوائه، والتركيز على الذكر والخلوة، وآداب الصحبة وما إليها من مظاهر التصوف الشعبي. وبفتح باب التصوف للعامة وأهل الريف، انتقل من النخبة إلى العامة، من المدينة إلى الريف، وظهرت الطرق الصوفية الكبرى وانتشرت في مختلف أرجاء المنطقة :كالقادرية، المدينية، الشاذلية والبدوية والدسوقية والخلوتية والعروسية والعيساوية والدرقاوية والتيجانية والعزمية..... وغيرها.

وقد اتخذ التصوف منذ بداية ظهوره أبعادا اجتماعية، وذلك بسبب الظروف التي كانت تعيشها المنطقة الشمال أفريقية (ق7، 8، 9هـ) وانساق الناس ورائه لما وجدوا فيه من مساواة وعدل وإحساس بالوجود والأهمية، فقد كان شكلا من أشكال التعبير عن الغضب الشعبي والتمييز الطبقي بين طبقة الأغنياء والمترفين وطبقة الفقراء والمعدمين. وكان المتصوفة الأوائل بمثابة النخبة التي تمسكت باستقلاليتها الفكرية والدينية تجاه السلطة الحاكمة، لذلك وقع اضطهادهم من طرف الحكام، وقاومهم العلماء الرسميون، وكما حدث في الشرق من اضطهاد وتشويه لرموز التصوف أصحاب الدور الاجتماعي من أمثال الحلاج، نرى أن المشهد نفسه يتكرر تقريبا في كل العصور والعهود، وهذا ما وقع مع أبي مدين الغوث أو إبراهيم الدسوقي، أو أحمد البدوي، أو الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري، أو الشيخ عبد السلام الفيتوري، أو الشيخ أحمد التيجاني، أو الشيخ محمد ماضي أبو العزايم، أو محيي الدين بن مصطفى الحسني... والقائمة طويلة.ووقع الالتقاء بين المتصوفة والشعب، في مواجهة السلطة، بسبب تموقعهم في نفس الخندق، فقد فرض عليهم الأمر فرضا، ووجدوا أنفسهم في نفس الجبهة، يقاومون الظلم والتعسف، والتمييز. وهذا ما يفسر لنا سر هذه العلاقة بين العامة أو الشعب والمتصوفة، قبل الوصول إلى مبدأ الكرامات وسلطة الأولياء على أفكار العامة وخيالهم. وسعى المتصوفة إلى حل مشاكل المجتمع واتحد الاثنان في مواجهة السلطة، واتخذا نفس الموقع ونفس الجبهة، فقاما بمواجهة الظلم والطغيان والفساد،وهذا ما يفسر لنا سر العلاقة بين العامة والصوفية، فاتحاد الهدف نابع من فكر الصوفية وعقيدتهم: (العيال عيال الله). وقد كان الصوفية على مر العصور رمز الوحدة مع المجتمع، والمطالبة علنا بحقوق الشعب ومصالحه.

بدأ هذا التلاقي بشكل عفوي، دون سابق تحضير أو تنظيم أو استعداد، ونتج عنه الكثير من النتائج الهامة لعل من أبرزها، الانتشار السريع للتصوف بين مختلف الطبقات الشعبية، وانفرد الصوفيون بقيادة الشعب بعد انهيار الدول الناتج عن سقوط الأندلس والحروب الصليبية، واستطاع المتصوفة توظيف هذه العلاقة في الدفاع عن مصالح الأمة، ولم تنقطع هذه الصلة بين المتصوفة والعامة إلى يومنا هذا، بحيث لا نزال نجد تأثيرهم قويا في المجتمعات العربية الإسلامية، بالرغم من هذا التطور الفكري والثقافي،والعولمة ودخول الأفكار الحديثة. وإن كان بنسب متفاوتة بين منطقة وأخرى.ومن هنا نستطيع أن نفهم: لماذا اختارت الفئات الواسعة من المجتمع الانضمام والانتماء إلى هذا الاتجاه الفكري، في حين كان حكامها يتخذون مذهبا آخرا ويعتنقونه. فكان الصوفي فردا من مجتمع الناس، يأكل ويتاجر ويتزوج كما يفعلون، لكنه في نفس الوقت كان يمثل قدوة لهم ونموذجا يتطلعون إليه ويعملون على متابعة مسيرته بينهم .

لقد آثرت بعض الشخصيات الصوفية اللجوء إلى الخلوات والمقابر زهدا وتعبدا وتجردا، لكن هذا الكلام لا ينطبق على كل المتصوفة بل هي حالات استثنائية خاصة، ثم إنهم يرون أنه عندما يدعوهم الواجب، سيتخلون عن مجاهداتهم الخاصة وينتقلون إلى خدمة الصالح العام،ولعل أبرز مثال على ذلك الشيخ أحمد البدوي الذي خرج من عزلته لمقاومة الغزو الصليبي والأمر نفسه حدث مع أبي الحسن الشاذلي وتلاميذه، وكان آخرهم وليس بأخيرهم شيخ الشهداء عمر المختار الذي خرج من خلوته التي كان يعلم فيها القرآن إلى ساحات الجهاد مدافعا عن أرضه ضد جحافل الطليان الطغاة،

ولا بد أن يبرز هذه الأيام من يحمل لواء المقاومة للذود عن حياض الإسلام في هذا الوقت العصيب، لقد باتت المجتمعات المسلمة في أمس الحاجة لإعادة الاعتبار للتربية الإسلامية الصحيحة وتزكية النفوس والالتزام بمنظومة الأخلاق التي بينها الشارع الحكيم. فمشكلة المسلمين تكمن اليوم في أن يلتزموا بما عرفوا من الحق، وأن يتمسكوا بشعائر الله، وأن يتجمعوا حول مرشد يهدي إلى سبل الرشاد ليتواصوا بالحق، ويربيهم على الالتزام بما عرفوا من الحق ليتواصوا بالصبر على الوقوف مواقفه، ويتحقق لهم الاستثناء من الخسران. ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر] صدق الله العظيم. والله المستعان عما يصفون.

الفهرس

